ربيع حسين العلي

# سجين

## صراع الحرية والظلم

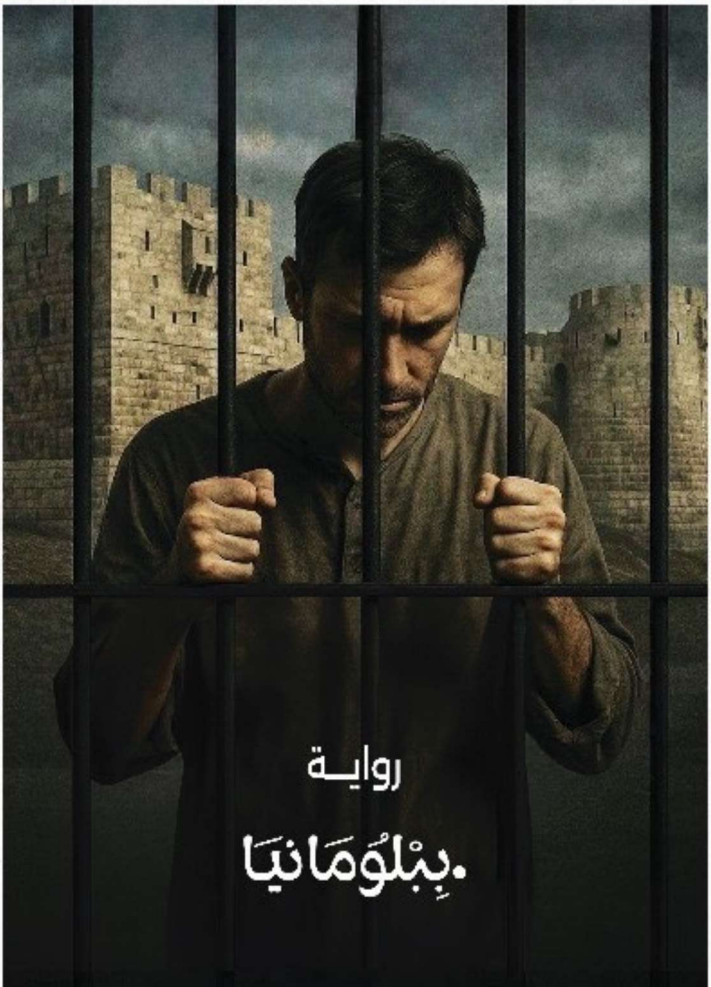

# سجين

لا يجوز نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو نسخ مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو بطريقة إلكترونية أو بالتصوير أو ترجمته إلى أية لغة أخرى دون الحصول على موافقة الناشر والمؤلف مقدمًا.

All Rights Reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording, or otherwise, without the prior written permission of Bibliomania Ltd.

الكتاب: سجين

المؤلف: ربيع حسين العلي

نوع العمل: رواية

الطبعة الثانية 1447 هـ - 2026 م - القاهرة

الناشر: ببلومانيا للنشر والتوزيع – مصر

رقم الإيداع: 4065 / 2021

الترقيم الدولي ISBN: 978 – 977 – 994 - 985 - 7

الرقم الكودي في ببلومانيا: bl00469

مراجعة لغوية وتدقيق: ريم نبيل الشامي

الغلاف: ببلومانيا

التنسيق الداخلي: ببلومانيا

مدير عام: جمال سليمان - مدير إداري: ديانا حمزة – مدير تنفيذي: محمد جلال

العنوان: عنوان (1): 15 شارع السباق – مول الميريلاند – مصر الجديدة

عنوان (2): 29 شارع الكمال – الأميرية – القاهرة

تليفاكس: 002026337855 - 002026064518

محمول: 00201208868826 – 00201030504636 – 00201210826415

صفحة الدار على موقع فيسبوك: https://www.facebook.com/bibliomania.eg/

الموقع الإلكتروني: www.bibliomaniapublishing.com

كل ما ورد في هذا الكتاب من أخبار وأحداث وآراء يعبر فقط عن رأي الكاتب، ولا يعبر بالضرورة عن رأي الناشر، ودون أدنى مسؤولية على دار ببلومانيا للنشر والتوزيع

/bibliomania.eg

جميع الحقوق محفوظة ©

# سجين

## صراع الحرية والظلم

رواية

ربيع حسين العلي

ببلومانيا للنشر والتوزيع
BIBLIOMANIA PUBLISHINGS

جميع الحقوق محفوظة ©

www.bibliomaniapublishing.com

2026

**لا ثورة بدون فكر... ولا حرية بدون ثقافة...**

# الإهداء

**إلى أحرار الوطن العربي الذين رفضوا الظلم، وانتفضوا على الأنظمة الجائرة.**

**إلى شهداء الثورات العربية من تونس، مصر، سوريا، العراق، اليمن ولبنان.**

..

# الفصل الأول

## "عيش، حرية، عدالة اجتماعية "

**2011/1/20**

**.. البداية..**

**كانت هي المدينة المنكوبة بلا منازع، تقع في أقصى شمال جمهورية النار، مدينة تُخفي تحت ستار من سكونها جراحًا لا تندمل، هدوؤها خادع، كأنما الطبيعة فيها قررت أن تكون شاهدة على ألمها المزمن، صيفها حارّ تملأه ضحكات الأطفال على الشواطئ، وشتاؤها ممطر تداعبه نسمات البحر حين تسير بجانبه وراحة المطر التي يعشقها الجميع..**

**ولكن تحت هذا الجمال تكمن نار مشتعلة، بركان خامل ظل يحتبس أنفاسه طويلاً، حتى قرر أن ينفجر، كما انفجرت شقيقاته من قبل.**

**كان النظام الحاكم أشبه بقبضة من حديد، لا يلين ولا يرحم، نظام مخابراتي غلّف البلاد بوشاحٍ من الظلم، صليل سوط الجلاد كان يخترق صمت الأزقة، يزرع الرعب في العيون، وينسج الخوف في القلوب. امتد نفوذ هذا النظام في كل زاوية: في البيوت، في المدارس، في المقاهي، وحتى بين الأنقاض المهجورة.**

**بات أهل المدينة يخشون كل شيء، حتى بعضهم البعض، فقد أصبح التجسس عادة، والريبة طبعًا.**

**وبينما استمر هذا الواقع الكئيب لسنوات طويلة، جاء عام مختلف، عام الحرية.**

**تسللت عدوى الأمل من شعوب أخرى نادت بالحكم للشعب والمجد للشهداء، فاستيقظت القلوب في جمهورية النار من غفلتها، وتحرّكت الأرواح في المدينة المنكوبة، كأنها تعانق شمسًا طال غيابها، ظهرت الصحافة البديلة، كصوت صادق ينقل صرخات الناس إلى الخارج، ويكشف ما حاول النظام طمسه لسنين.**

وفي ذلك العام اندلعت الثورة، ثار الناس على حكم جائر امتد لعقود، لم يعرفوا خلالها طعم الحرية ولا دفء أنفاسها، كانوا يظنونها حلمًا بعيدًا، خرافة من بلاد العجائب، لكنهم أيقنوا أخيرًا أن ما كان يُقال عنه "وهم الحرية"، هو في الحقيقة الحقّ الذي يستحق أن يُنتزع.

الحرية التي هي أساس وجود الإنسان والتي لا قيمة للفرد من دونها. بدأت الشعارات تعم أرجاء جمهورية النار من شمالها إلى جنوبها ومن بين زوايا الخوف وركام الصمت، خرجت أولى الكلمات المرتجفة: "حرية... حرية". لم تكن مجرد كلمة بل كانت ارتجافة قلب كتم أنفاسه لسنوات، خرجت كأنها تنهيدة جيل كامل، خرجت خافتة في البداية كهمسةٍ بين جدران المنازل، ثم شيئًا فشيئًا اكتسبت جسارة الصوت وقوة المعنى.

وفي تلك اللحظة لم يعودوا مجرد أفراد مبعثرين، بل صاروا شعبًا واحدًا، قلبًا واحدًا، هدفًا واحدًا.

ومنذ ذلك اليوم بدأت الأرض تهتز تحت أقدام الجلادين.

ترددت في الأزقة وعلى الجدران، كتبتها أيدي خفية على الحيطان في الليل، وهتفت بها الحناجر في وضح النهار، ومع كل تكرار كانت تكبر في الصدور، حتى غدت صرخة لا يمكن كبتها، نارًا تسري في العروق، توقظ ما خُدّر، وتحيي ما مات.

وحين اشتدّ الوجع، لم يعد الهتاف كافيًا، توحدت القلوب على نغمة واحدة، وارتفعت الحناجر بشعارٍ واحد كأنه وُلد من رحم الوجع ذاته، شعار لا يحتاج إلى تفسير ولا ترجمة، فقد صار نبضًا في صدر كل ثائر:

"الشعب يريد إسقاط النظام"، " عيش حرية عدالة اجتماعية"

في هذا الوقت كان "مجاهد" طالبًا في كلية الحقوق، ويقطن في أحد أحياء المدينة المنكوبة.

كان شابًا خلوقًا، مشهودًا له بحسن الخُلق، وطيب العشرة. منذ نعومة أظافره، حمل في قلبه حلمًا لا يفارقه: أن يرى جمهورية النار حرّة يومًا ما، تتحرر من قيود القمع وتتنفس الحرية كما يليق بالشعوب الحيّة. لم يكن حلمه وليد لحظة بل كان يكبر معه عامًا بعد عام يتغذى من ظلمٍ يراه وصمتٍ يختنق به وأملٍ لا ينطفئ.

بدأ يتواصل مع أصدقائه ليلتحق بالثورة، ويتآزر ويتكافل معهم. أخذ يتنقل من مكانٍ إلى آخر ليعثر على من يشاركونه أهدافه، ويقوم بتنظيم المظاهرات معهم رغم منع والدته له خوفًا عليه.

تخلى مجاهد عن كل شيء باحثًا عن حلمه الذي يتجلى بنيل وطنه حريته وسيادته، واستقلاله من هذا النظام الجائر الظالم المستبد.

كان "مجاهد" شابًا مثقفًا يعشق القراءة، عُرف بكتابته لشعارات الثورة وبنشاطه في توعية الناس بمفاهيم الحرية والديمقراطية والكرامة الإنسانية.

كان يؤمن بأن الحرية هي جوهر الإنسان، وأساس لا غنى عنه في أي مجتمع يسعى للتقدم.

في نظره، الحرية ليست مجرد كلمة، بل هي الحق في التفكير والاعتقاد والتصرف والتعبيرات قيود، طالما لا تمس حرية الآخرين أو تضر بحقوقهم. أما الديمقراطية، فهي بالنسبة له نظام لا يتعارض مع أفكار الآخرين أو معتقداتهم أو سلوكهم بل تقوم أساسًا على مفهوم الحرية وثقافة الإنسان. فالشخص غير الحر، العاجز عن تأمين غذائه واحتياجاته الأساسية، لن يستطيع ممارسة الديمقراطية بصورتها الصحيحة.

فانشغال الإنسان بقوته اليومي وتأمين حاجاته قد يشكل عائقًا أمام حرية اختياره وممارسته الديمقراطية.

كما أن الجاهل الفاقد للمبادئ الثقافية والمعرفية يعتبرغير مؤهلاً لممارسة الديمقراطية، بل إن مشاركته في العملية السياسية قد يمثل عائقًا أمام تنمية المجتمع وتطويره إذا ما كانت فئته تمثل شريحة واسعة من المجتمع.

فالثقافة والحرية هما الركيزتان الأساسيتان لأي ديمقراطية سليمة، وهذا ما كان يفتقده ذلك المجتمع. فنتيجة لعقود من القمع والإضطهاد الممارس افتقر الشعب إلى هاتين الركيزتين المرجوّتين لممارسة ديمقراطية حقيقية. فقد كان مجبرًا هذا الشعب بأن يختار ما يُطلب منه وأن يمارس ديمقراطية مزيفة يرسم مسارها وآليتها النظام المخابراتي.

كان كل شيء أشبه بالعدم، حتى الإرادة غابت، فالمواطن في جمهورية النار كان يُجبر على التوجه إلى صناديق الاقتراع، لا ليختار، بل ليُختار عنه، في مسرحية انتخابية تُفرض فيها النتائج قبل أن تبدأ. وبما أنه ابن البلاد العربية فكانت كرامته هي كل ما يملك، فالإنسان لا يعادل شيئًا سوى ما تساويه كرامته.

كان هذا ٍحاله، يتنقل من مكان إلى آخر، يحاضر مع زملائه ممن هم ناشطون في الثورة، ويحاضر في حلقات ضيقة بعيدة عن عيون رجال المخابرات، ويشارك بالمظاهرات متخفيًا لكيلا يتعرف عليه أحد، وكان هذا التخفي بطلب من أمه.

كان يمضي أيامه بين المشاركة في المظاهرات وإلقاء المحاضرات لأصدقائه وتثقيفهم حول كيف يمكن للثورة أن تنجح.

وفي إحدى المرات، وأثناء مشاركته في إحدى المظاهرات حاول رجال المخابرات إلقاء القبض عليه إلّا أنه تمكن من الهرب، لكنه لم يتوجه إلى منزله، وإنما ذهب وأختبأ لدى أحد أصدقائه من ناشطي الثورة أيضًا. وفي تلك الليلة علم من صديقة الذي أرسله للمنطقة الذي يسكن فيها ، أن رجال المخابرات اقتحموا منزله، وهلعوا بضرب أبويه وإخوته، ثم غادروا.

وعندما علم بالأمر، بدأت الأفكار تقتحم مخيلته حول احتمال تسلل عناصر المخابرات إلى الحلقات التي يُشرف على تثقيفها.

أخذ القلق يتسلل إليه، فبادر بالحديث مع صديقه المقرب عن الأمر.

فقال له صديقه: هذا احتمال وارد، لكن لا تستبعد أن يكون مجرد شخص حاقد لا لشيء إلا لأنك متعلم ومثقف، وهذا وحده كافٍ ليثير الحسد في قلوب البعض..

شرد قليلًا، وغاب بنظره في الفراغ، ثم قال بصوتٍ هادئ وكأنما يخاطب نفسه :

أيعقل أن يصبح التنوير تهمة وأن يُحارب المرء فقط لأنه يحاول أن يوقظ النائمين..

تنهد بمرارة، وأضاف:

إن كان الحقد هو ثمن الوعي، فليكن لكنني لن أتراجع... هكذا هو حال بعض البشر، لا يسعون للاقتداء بالناجح أوالمثقف، بل يحقدون عليه ويتمنون سقوطه كما سقطوا هم. فبدلاً من أن يطمحوا للنجاح والارتقاء، يسعون لإفشال أو تشويه سمعة المثمر المبتهج ذو الكفاءة. ولا أخفيك يا صديقي أن من الناس من يتمنون موتك لا نجاحك، رغم أنك تمد لهم يد العون وتشاركهم نور معرفتك. هذا ما يصنعه الجهل، عندما يبسط ذراعيه على البعض.

قضى ليلته لدى صديقه وفي اليوم التالي ذهب إلى منزله للاطمئنان على عائلته، فرأى أن والدته غير قادرة على المشي وكأنها مكسورة الحوض وعلامات الضرب المبرح ظاهرة على وجه والده وإخوته.

توقف عقله للحظات وكأن الزمن تجمد من حوله كل شيء بداخله بدأ يتسارع، قلبه يخفق بعنف وأفكاره تتزاحم بلا ترتيب، وجد نفسه ممزقًا بين خيارين: أن يصمت ويتنازل عن مطالبه، أو أن يستمر في السعي خلف ما يؤمن به، لكن في النهاية تغلب صوت العقل فاختار التنازل... حفاظًا على عائلته ولئلا يعرّضهم للأذى..

وهذا حال كثير من أبناء الوطن العربي، يرضون بالظلم والمهانة لا حبًا بالخضوع، بل حفاظًا على محبيهم. كم من مواطنٍ كتم صوته لا خوفًا، بل حرصا على ألا يمسّ الأذى أهله وأحبته. كم من شخص انحنى أمام ظلم نظام سياسي جائر ليؤمّن قوت يومه، أو صبر على قسوة مديره كي لا يحرم عائلته من لقمة العيش، أو تحمّل في بيته ما لا يُطاق حفاظًا على بقاء واستقرار عائلته.

ورغم كل هذا، يبقى صدى الحرية أقوى من الذعر، وأنبل من الذل، وأسمى من الخضوع.

فالحرية من أجل الوطن لا يمكن لفوهات المدافع أن تخرسها، ولا لأجهزة المخابرات أن تُرعبها أو تُرهبها.

بدأ بحكمته، وذكائه، وفلسفته العميقة يتلفظ بمفاهيم فصيحة بليغة ذات معانٍ ودلالات عدة، وهي أن الوطن يبقى أثمن وأعظم ما نملك في هذا الوجود، حتى أنه أغلى من أنفسنا، وأهلنا، وكل من نحبه. فالمرء لم يخلق إلا من هذا الوطن.

بالرغم من كل هذا إلا أنه كان ينظر إلى أهله نظرة ندم وسدم، نظرة فيها الكثير من الشفقة ويقول في نفسه: إن الله هو الحامي الحقيقي للناس لا السكوت، فكل الأديان دون استثناء أوصت بعدم الصمت أمام الظلم، حتى لو كان الثمن هو حياة الإنسان نفسها، لأن السكوت عن الظلم خذلانٌ للروح، تلك الروح التي لا تقبل أن تحيا إلا في ظل الحرية.

غادر منزل والديه وعلى وجهه ملامح إصرار لا تخطئها العين، مضى في الطرقات يبحث عن المظاهرات المطالبة بالحرية ورحيل النظام، عازمًا على أن يكون جزءًا منها، صوتًا يرفض القهر، وخطوة تسير نحو التغيير..

وفي إحدى المظاهرات، حاولت الأجهزة الأمنية مطاردته وإلقاء القبض عليه، إلا أنه تمكن من الفرار مرة أخرى بمساعدة بعض أصدقائه.

توجه إلى منزل صديقه وأبلغه ما حدث معه، فطلب منه صديقه أن يتأنى قليلاً لأنه أصبح هدفًا لجهاز الاستخبارات، فرفض ذلك وقال:

- إن التوقف في وسط الطريق هو الانتحار بذاته.

طلب من صديقه أن يرافقه إلى مكان إلقائه للندوات الثقافية، فوافق صديقه على طلبه، وهناك قام صديقه "حسام" بالتعرف على أحد الأشخاص الحاضرين الموالين للنظام إلا أنه بقي هادئًا، ولم يتلفظ بأيّة كلمة إلى أن أنهى "مجاهد" محاضرته.

وعند الانتهاء اصطحبه صديقه وغادرا المكان، وفي الطريق أبلغه بما قد رآه، صمت قليلاً وخطرت بباله فكرة تعقب ومراقبة هذا الشخص، فظل ينتظره أمام منزله ليراقبه، وعند خروج هذا الشخص الذي يدعي "ماهر" - وهو عميل للمخابرات تعقبه ليرى وجهته، وإذ به يحمل بعض الأوراق ويدخل أحد فروع المخابرات في المدينة التي يقطنون فيها.

عاد إلى منزل صديقه وأخبره بالأمر، فطلب منه أن يغير مكانه وأن يذهب إلى منزل أحد أقربائه الموثوق بهم ليتخفى هناك..

وافق على طلبه وقام "حسام" بنقله إلى منزل أحد أقاربه ليختبئ هناك. وما أن عاد إلى منزله وأمضى قليلاً من الوقت بداخله حتى اقتحمت دورية أمن دولة منزله وألقت القبض عليه واصطحبته إلى ما لا يعرف.. كان الطريق معتمًا كأن الليل نفسه قد اتخذ قرارًا بأن لا يترك له بصيصًا من الأمل، لا يدري إلى أين يُقتاد ؟ فقد أُغمضت عيناه بقطعة قماش قاتمة، ولم يعد يرى سوى ظلمة تغلف كل شيء.

شعر بسيارة تتوقف، وأيدٍ غليظة تجرّه نحو المجهول، مر به عبر ممرات طويلة تتردد فيها صدى خطواتهم، بينما قلبه يخفق كطبول حرب، لا يدري ما ينتظره خلف الجدران.

توقفوا أخيرًا عند إحدى الغرف، ودُفع إلى الداخل بعنف، وأجلسه ذلك الرجل الذي كان يمسك به على كرسي معدني بارد، ثم انتزع الغطاء عن عينيه، فهاجمه للضوء الخافت، مما أصابه بدوارٍ لبرهة، لكن عينيه سرعان ما اعتادتا على المكان..

ومنذ تلك اللحظة بدأت فصول الجحيم، جلسات تعذيب وحشية لا ترحم، صرخاته تذوب في جدران الغرفة، ولا أحد يسمع أو لعلّهم يسمعون، لكنهم فقط يستمتعون. كل ذلك فقط لإجباره على الاعتراف بمكان اختباء صديقة، لم يكن التعذيب عاديًا، بل كان قاسيًا يتجاوز حدود الاحتمال البشري، ومع ذلك، ظل صامداً، عضّ على ألمه، وواجه السياط والكهرباء والصراخ بوجهٍ لا ينكسر، رافضًا أن يخذل صديقه.

مرت ساعات طويلة كأنها دهر، وحسام ما زال متماسكًا، لا ينبس ببنت شفة، وكأن صمته وحده يعلن التحدي.

في أحد أروقة الفرع، جلس ماهر، يقترح على الضابط المسؤول فكرة خبيثة وهي أن يجلبوا أخته، لضعف صموده من خلال من يحب. لمعت الفكرة في عيني الضابط، وأمر على الفور بإرسال دورية لإحضار شقيقته.

لكن الطريق إلى الفتاة لم يكن سهلًا، إذ كانت تعيش وسط عائلتها، الذين سرعان ما وقفوا في وجه الدورية حين علموا بنيّتها، فخرج إليهم قائد الدورية محاولًا امتصاص غضبهم وقال بلهجة دبلوماسية: "لن نؤذيها" فقط تحقيق بسيط، وستعود إلى بيتها سالمة.

انقسمت الآراء داخل العائلة، بين من أراد المواجهة، ومن رأى أن الحكمة تقتضي التعاون لتجنب العنف، وبعد نقاش طويل وافقوا على تسليم الفتاة، على أن تضمن المخابرات سلامتها.

اقتيدت شقيقة حسام إلى ذلك المبنى، والقلق يرتسم على وجهها، فلقد تم أخذها بنفس طريقة أخاها وهي مغمضه العينين، وحينما وصلت تم إدخالها إلى مكتب الضابط الذي واجهها بابتسامة باردة، وقال: "نحتاج مساعدتك فقط أقنعي أخاك بأن يخبرنا أين صديقه مجاهد"؟

وفي الوقت نفسه، كان أحد أقارب حسام، ممن علم بالأمر، يسرع إلى حيث يختبئ مجاهد، وأخبره بما حدث، وبنبرة جادة قال له: "يجب أن تغادر فورًا إنهم يقتربون."

لم يكن أمام مجاهد خيار اضطر أن يترك مخبأه، ويبدأ رحلة جديدة من الهروب، وقد ازداد ثمن حريته دمًا ودموعًا..

غادر المكان الذي يختبئ فيه، وتوجه إلى ضواحي المدينة التي يقطن فيها إذ جعل من البراري مكانًا لإقامته، في الوقت نفسه قامت أخت حسام بإقناعه بإرشاد أجهزة الأمن إلى مكان صديقه.

رفض حسام في البداية إلا أنه بعد تهديد ضابط الأمن له بحجز أخته كرهينة، أخبرهم بمكانه الذي كان قد غادره، كان القرار بالنسبة له صعبًا إلا أننا بشر ولكل منا تفكير مختلف وأولويات مختلفة.

لكل منا نقطة ضعف، وقد تكون شخصًا عزيزًا كالأب، الأخ، الأخت، الابن أو الحبيب.
فحسام كانت نقطة ضعفه أخته التي أجبرته على أن يفصح عن مكان صديقه. أفرجت أنظمة المخابرات عن حسام وأخته، وتوجهت دورية إلى المنزل الذي ابلغهم عنه ، لكنهم عادوا خائبين ، لأنه كان قد ترك المكان وهرب وفر إلى الخلاء.

ذهب يراقب من بعيد، ويتوجه للمشاركة في أيّة مظاهرة يراها، ويهرب بعد اقتحام أجهزة الأمن للمظاهرات إلى البراري. استمر على هذا الحال لفترة، لا يفعل شيئًا سوى المشاركة في المظاهرات، والتخفي في الخلاء إلى أن وقع في فخ الأمن. ففي إحدى المظاهرات دل عليه أحد المشاركين في المظاهرة لأجهزة الأمن التي قامت بإلقاء القبض عليه واصطحبته إلى أحد فروع المخابرات.

في المعتقل التقى بأحد أقارب حسام الذي كان محتجزًا بسبب عدم إقراره بمكانه. "في أولى جلسات التحقيق، أنكر معرفته بذلك الشخص تمامًا، وادّعى أنه لم يؤوه يومًا، كان هذا الإنكار كافيًا ليقنع الأجهزة المخابراتية بالإفراج عن الرجل. أما هو فبقي محتجزًا.

وباليوم التالي بدأ التحقيق معه مرة أخرى، ولكن هذه المرة توجه له تهمة العمالة والانقلاب على نظام الحكم، فوجه المحقق التهم إليه، الذي تحدث حينها قائلاً..

- ومتى يُتهم صاحب هذا المطلب بـ "العمالة"؟

وأكمل كلامه: هذا الوطن للشعب وليس للنظام الذي يستولي على الوطن بالتزوير والترهيب، ويدع مواطنيه يعيشون في فقر وذل.

وحينما تتعارض مطالب الحرية مع مصالح النظام، يقوموا بتُشَوِّيه المطالب ويُتهم من طلب ذلك بالخيانة.

وبيتم استخدام الإعلام للترويج بأن ذلك الشخص الذي كل ما فعله هو أنه رفض الوضع القائم اتهامه بأنه يخدم أجندات خارجية..

نهض المحقق بجسده الضخم، وعضلاته المفتولة التي تُبرز قوته، ثم ردّ عليه بصوته الخشن: أين الفقر والجوع الذي تتحدث عنه؟ ها أنتم تأكلون وتشربون وتتعلمون..

بلع ريقه مبتسمًا ابتسامة خفيفة لا تُفهم..

إنّ الفقر الحقيقي هو فقر العقول، والجوع الأعمق ليس جوع الخبز بل جوع الروح، ذلك الفراغ الذي لا يملؤه إلا هواء الحرية.

ما جدوى هذه الحياة بدون كرامة، فما قيمة أن يُمنح الإنسان طعامًا وشرابًا ويسلب منه كرامته؟ أليس هذا الجوع أشد قساوة من جوع البطون؟

أهذه تسمى حياة؟

يا عزيزي، الجوع الحقيقي هو جوع الكرامة وليس فقط جوع الرغيف.

فالإنسان الذي يعتقد أن الخبز أغلى من كرامته، لا يستحق أن يعيش. بدون الكرامة يصبح المرء أشبه بالحيوان الذي يأكل ويشرب. أي عيشة وأي حياة نعيش إذا فقدنا كرامتنا؟ حالنا وأي حال!

كل شيء ممنوع حتى الكلام، نعيش خرس ويحظر علينا الكلام في الممنوع، يُحظر علينا السؤال لماذا أو كيف؟ يمنع علينا المطالبة بحقنا في العيش

بكرامة.

القانون موجود لكن لا نراه، والدستور يصاغ على قياس صائغه، الدين يُفسر حسب أهواء الحاكم، وثروات الوطن في يده يوزعهاعلى حاشيته كيفما شاء.

ما قيمة أن تكون معدتك ممتلئة بينما فكرك فارغ؟ أن تكون متعلمًا لكن محرومًا من التفكير والاختيار؟ أن تمشي على قدميك ولكن لا تمتلك قرار توجيهها؟ ما هذه الحياة إن لم نكن أحرارًا وكريمين؟

صرخ المحقق في وجهه موجها سؤاله بصوت صارم: أي نظامٍ عميل علمك هذا؟

يبتسم مجاهد مكملا كلامه: الأنظمة العميلة لا تعلم الفرد الاستقلال أو الحرية، بل تلقنه التبعية والطاعة العميلة، تعلمه ما تعلمونه لأتباعكم. العمالة يا حضرة المحقق، هي في تقديم مصلحة أي شخص أو دولة أو جماعة على مصلحة وطننا وشعبنا وأبنائنا وأجيالنا القادمة.

العمالة يا حضرة المحقق، هي أن يعيش بعض السياسيين في رفاهية بثروات الوطن بينما يُرمى للشعب بعض الفتات. هي فساد القضاء وخضوعه لسلطة الحاكم، وهي أن أعيش بوطن لا نأخذ فيه حقوقنا كاملة.

ولكنه يتفاجأ أن المحقق قد وجه إليه تهمة العمالة للموساد.

اكتفى بابتسامة ساخرة، قبل أن يرد عليه بنبرة هادئة.. ما الفرق بينكم وبين الموساد؟ فالموساد يحتل أرضًا ملكًا لشعب آخر وأنتم تحتلون أرضًا ملكًا لشعب آخر. الاحتلال يا حضرة المحقق، لا يقتصر على الأجنبي فقط، فأشدّ أنواع الاحتلال هو الاحتلال الداخلي. هو حين يمتلك أشخاص يحملون جنسية الوطن القدرة على احتلاله، فيتبعون ثرواته، ويسلبون شعبه حقه

وحريته في تقرير مصيره، وينتهي بهم الأمرإلى أهانة كرامتهم وإنتهاك حرماتهم إذا ما وقفوا معارضين لهم.

الاحتلال الحقيقي هو وجود نظام متعالي ومترف، بينما يدفن شعبه تحت المدر، كحيوانات ضالة تبحث عما يسد رمقها.

لكنني يا حضرة المحقق لست منهم، لست حيوانًا يريد أن يأكل ويشرب ويساق كما تريدونه أنتم.

أن أعظم خيانة لله تعالى هي إنكار ما وهبني إياه، أنه خلقني إنسانًا له حقوق وله كرامة، وأول هذه الحقوق هي حريتي: حرية التعبير والمشاركة والاختيار. خلقني حرًا بين الناس، عبدًا له وحده لا أشرك معه أحدًا في عبوديتي له؛ فأنا لا أعبد إلا الله ولا أعبد أحدًا سواه.

وأكمل إذا كنت أنت تريد أن تكون منهم فأنا لن أكون.

انفعل المحقق عليه وصفعه بقوة، فما كان منه إلا أن اندفع نحوه محاولًا التهجم عليه، وحين رأت عناصر المخابرات ذلك، انقضّوا عليه وأوسعوه ضربًا، تارةً بأيديهم وتارةً بعصايهم، حتى فقد وعيه تمامًا.

حمله العناصر إلى غرفة الاحتجاز الواقعة في القبو، وهي الغرف المخصصة للمعتقلين السياسيين. وما إن مضت بضع ساعات، حتى بدأ يستعيد وعيه شيئًا فشيئًا بعد غيبوبة مؤلمة، فتح عينيه فرأى الظلام الدامس يلف المكان من حوله صرخ بأعلى صوته لكن لم يجبه أحد، كرر الصراخ مراتٍ عدة، دون أن يسمع سوى صدى صوته يرتدّ في الفراغ..

اعتقد حينها أنه فارق الحياة، وبدأ يفكر في كل شيء حتى أنه كان ينتظر أن تأتي إليه الملائكة لتحاسبه.

مر يومان ولم يكن يعلم أن يومين كاملين قد مرّا عليه حتى جاء إليه أحد رجال المخابرات المداومين هناك وقدم له بعض الماء، في هذه اللحظة علم أنه ما زال على قيد الحياة وأنه محتجز في غرفة انفرادية وحده.

طلب من الحارس أن يقوم بتزويده ببعض الطعام إلا أن الحارس أخبره أنه لا يمكنه فعل ذلك قبل أن يستأذن من الضابط المسؤول عنه. ضحك ضحكه لا تخلو من السخرية، بدت وكأنها تسخر من سذاجة الحارس، ثم هز رأسه وقال بابتسامة جانبية زادت من حدة تهكمه:

- عبيد أنتم، وستبقون عبيدًا لأنكم تربّيتم على الخضوع والخوف، واعتدتم أن تكونوا تابعين لمن هم فوقكم.

صرخ فيه وقال:

- لا أريد أن أسمع صوتك، فأنت عميل خائن لهذا الوطن..

كان لهذا الكلام صدى كبيرٌ في أذنه، أطلق ضحكة هستيرية مدوّية، تخالطها نبرة يأسٍ عميق.. فسأله الحارس:

- ما الذي يضحكك يا هذا؟

فرد عليه

- من الذي علمك هذا أيها الحارس؟

فجاء رده..

- إنَّ الضابط المسؤول عنك قال لي إنك عميل وخائن للوطن ومن أجل ذلك تم سجنك.

هز رأسه وسرحت عيناه: إن هذا الحارس مسكين لا يعلم ما يفعله، فهو ينفذ أوامر سيده، هو يعمل ليعيش ليس أكثر.

وكم هم كثيرون ممن ينفذون الأوامر دون تمحيص أو تحقق. آلات تنفذ ما يطلب منها، ممثلون يلتزمون بأدوار كتبها لهم أسيادهم. وكم من إعلاميٌّ يلقي ما كُتب له لا دور له سوى التبليغ، كأنه ساعي بريدٍ لا يفقه ما يحمل.

وكاتبٌ أيضاً لا يكتب إلا بما يُملى عليه، قلمه عبدٌ لإرضاء سيده.

وهناك قاضٍ يُصدر حكمًا لم يصغه ضميره، بل أملاه عليه وليُّ نعمته.

ومحاضرٌ يعتلي المنابر ليُروج لما يخدم من عيّنه، لا لما يؤمن به عقله.

هذا هو حالنا آلات تشتغل بكبسة زر من أنظمة جائرة حرمتنا حتى من التفكير في الصواب والخطأ.

فالحق هو ما يقوله المسؤول بغض النظر عن صوابه من عدمه، والباطل هو ما يرفضه. قطيعٌ نحن، يساق من قبل الراعي الذي يحدد وجهته، استيقاظه، نومه، حتى تاريخ حياته ومماته.

نادى مرة أخرى الحارسَ طالبًا منه أن يقدم له شيئًا ليأكله، فذهب ذلك الحارس لسيده لسؤاله عما إذا كان يمكنه أن يقدم له بعض الطعام. وافق الضابط المسؤول على تقديم بعض الطعام لمجاهد، وقام الحارس بإيصال الطعام له مستخدمًا الفتحة التي في أسفل الباب.

أمضى مجاهد ليلته الثالثة في الغرفة والتي كانت ضيقة كأنها قُبرت خصيصًا لابتلاع الأمل، فجدرانها عارية متشققة بلونٍ رمادي باهت يثير الكآبة في الروح، ولا يوجد بها سريرٌ ينام عليه فقط أرض تشبه الثلج، لا يوجد إلا قطعة قماش بالية تفوح منها رائحة العفن والرطوبة كأنها كانت تخص كلبا من قبل.

النافذة الوحيدة الموجودة كانت في أعلى الجدار صغيرةً بحجم الكف، لا يدخل منها اي إضاءة، تبدوا أنها تطل على ممر مزوّدة بقضبان حديدية كأنها تسخر من فكرة الهروب.

في المنتصف جلس وحيدًا يحتضن جسده وكأنما يضم ظلّه الوحيد لا يسمع إلا صوت أنفاسه ونبض قلبه الذي صار أقوى من الصمت المحيط به. كل شيء في الغرفة ساكن، إلا أفكاره التي كانت تئنّ داخله، يحاول تدفئه جسده الذي يرتعش حتى أنفاسه تتعالي من شدة البرد..

وفي اليوم الرابع..

قام الحارس بإيقاظه طالبًا منه الخروج من غرفته لاستكمال التحقيق معه بناءً على طلب المحقق.

لم يكن قادرًا على مواصلة السيروكأن الأيام القليلة التي قضاها أثقلت جسده كأنها دهر من الزمان.

توجه مع الحارس إلى غرفة المحقق الذي كان هادئًا بعض الشيء، طلب منه الجلوس فجلس، ثم قام المحقق بتقديم سيجارة دخان له، فأخبره بأنه لا يدخن.

أكمل المحقق التحقيق معه بطريقة هادئة بدايةً، فبدأ يسأله عن طلباته من القيام بهذه التحركات... أخبره أن كل ما يريده هو الحرية والعيش بكرامة. هز المحقق رأسه مبتسماً وسأله عن مفهوم الحرية والكرامة التي يريدها. أجابه بأن للحرية مفهومًا واحدًا فقط، وهو حرية التعبي،الفكر، والاختيار، مع الإحتفاظ بالحق في الاعتراض على الشواذ دون الخوف من بطش أجهزة النظام.

سكت المحقق قليلاً وقال له:

- تابع وأخبرني عن مفهومك للكرامة؟

فرد عليه:

- الكرامة مفهوم متكامل لا يُجزأ، فهي احترام الإنسان لذاته، واعتراف بقيمته، ومعاملته بإنسانية وأخلاق بعيدًا عن الافتراء أو الظلم أو بطش من أي طرف.

نظر إليه المحقق:

- إن ما تقوله رائع، وهو ما يطبقه النظام في دولتنا.

أدار رأسه بالاتجاه الآخر وحاول كتم ضحكته..

- لماذا إذًا أنا معتقلٌ هنا طالما أنكم تطبقون هذه المفاهيم؟ ما الذي فعلته إذًا ليتم اعتقالي بهذه الطريقة وأنا لم أفعل شيئًا سوى أنني شاركت بمظاهرة لأعبر فيها عن رأيي؟

وأكمل وهل كنتم قد حفظتم كرامتي عندما أبرحتموني ضربًا؟ هل عاملتموني بإنسانية وأخلاق؟

يا سيادة المحقق إن الإنسان بالنسبة لجميع الأنظمة العربية هو رقم في تعداد عدد السكان ليس أكثر، ليس له أيُّ حق، يُساق ويهان ويعنف كالحيوانات.

ففي هذه الأوطان،

الخوض في السياسة محظور، والتعليم مقيد، والثقافة هي الأخرى خاضعة للرقابة، والدين مفسره الحاكم، والقانون ما يقرره، والإعلام أداته، والقضاء طوع أمره، ونحن مجرد عبيده في مملكته.

حال العرب، هذا حالهم...

اعذرني يا سيادة المحقق؛ هذه مزرعة حيوانات، والحاكم راعيها، وشعوبنا القطيع فيها.

غضب منه المحقق وطالب بإعادته إلى الزنزانة موجهاً له كلماته الصارمة:

- إذًا ... انعم بحريتك في زنزانتك.

استهزأ مجاهد بكلام المحقق ورد عليه..

الحرية ليست مجرد حرية تنقل، بل جوهرها يكمن حرية التعبير عن الرأي بديمقراطية. فكم من شخص حر التنقل بلا قيود وهو عبد في كلمته وأسيرٌ في مواقفه، وكم من سجين خلف القضبان يملك فكرًا حرًا ومواقف لا تعرف التقييد.

قام الحارس بسحبه من يده، وأعاده إلى زنزانته تحت الأرض. في الزنزانة شرع مجاهد يضحك ويتمعّن في كلام المحقق قائلاً في نفسه: "العلف... نعم، العلف... حديث الشعب وشغلهم الشاغل، وكأننا لم نخلق إلا لنعلف ونردد: لبيك يا رئيس".

بقي في زنزانته ليال وأيام لا يفعل شيئًا سوى التفكير بظلم هذا النظام وبطشه.

وكان حارس زنزانته يقوم بتقديم الطعام له بشكلٍ معتاد، طعام لا يصلح حتى لكلبٍ في الشارع، وخبزٌ تفوح منه رائحة العفن وأحيانًا يشبه الحجر، ويوضع إلى جواره كوب من الماءِ الباهت طوال اليوم، كأن لا أحد يعبأ إن شربه أو تركه يموت عطشًا. كان ذلك الحارس يتحدث معه في بعض الأوقات حتى قام الحارس بسؤاله عن السبب الحقيقي لاحتجازه، فقام بشرح أسباب اعتقاله للحارس الذي راح يفكر في كلامه.

ويومًا بعد يوم، أصبح الحارس قريب منه يستمع له وهو يقوم بتثقيفه وتنويره حتى أصبح يقتنع أكثر وأكثر بكلامه حتى أصبحا صديقين.

في هذه الأيام، كان زخم المظاهرات يتزايد يومًا بعد يوم إلى أن أصبحت المظاهرات تعم كافة أحياء المدينة المنكوبة.

وما إن قام بعض الثوار بمحاولة اقتحام فرع المخابرات المسجون فيه مجاهد حتى هربت أجهزة الأمن، وكان 'عصام " ذلك الحارس من بين هؤلاء الأفراد.

وأثناء هربه تذكر عصام أن مجاهد ما زال محتجزًا تحت الأرض، ومن المستحيل على هؤلاء الثوار أن يعثروا على مكانه.

خلع بذلته العسكرية، وعاد إلى فرع المخابرات، وقام بإرشاد الثوار إلى مكان المحتجزين تحت الأرض ومن بينهم مجاهد.

سُر مجاهد عندما رأى عصام من بين الأشخاص الذين قاموا بتحريره من معتقله، فاقتنع حينها أكثر وأكثر أن العلم والثقافة والاطلاع هي أساس وجود الإنسان وعيشه بحرية وكرامة... وهذا قول حق.

لا يمكن لأي إنسان، مهما ارتقى شأنه، أن يعيش حياة متكاملة تنضح بالإنسانية إلا إذا نشأت هذه الإنسانية من ثقافة سليمة تعتمد على رؤية موضوعية بعيدًا عن العنصرية والحقد تجاه الآخر.

تم تحريره من معتقله، وانطلق يتنقل من مظاهرة إلى أخرى مطالبًا بالتغيير، وموضحًا لزملائه في الثورة أهمية أن يكون المرء على ثقافة وإلمام بكل المفاهيم التي تحكم أي مجتمع متقدم ويرتكز عليها.

فتطبيق هذه المفاهيم من دون الدراية الكاملة بها وبمضمونها وغاياتها قد يؤدي بالمجتمع إلى الهلاك. فضلاً عن ذلك، أن القيام بإسقاط هذه المفاهيم

على أيِّ مجتمع دون مراعاة لظروفه قد يكون لها أثرٌ سلبيٌ عليه وعلى الأسس والمبادئ التي يقوم عليها.

الحرية، المساواة والديمقراطية بمفهوما الحالي، هي مفاهيم صاغها أصحابها لتناسبها مع مجتمعاتهم التي تختلف اختلافًا جذريًا عن مجتمعاتنا.

فما يعتبر حرية رأي وتعبير عندهم قد يختلف تمامًا عن مفهومنا لها، وما يعد مساواة في نظرهم قد لا يتطابق مع قيمنا، وما يعتبر مشروعًا وفق أخلاقهم قد يكون مرفوضًا في ثقافتنا.

فلكل مجتمع عاداته وتقاليده وقيمه التي تشكل قيودًا تحد من تطبيق هذه المفاهيم كما هي.

فلا يصح أخذ المفاهيم الغربية كما هي وتطبيقها في بلادنا نحن؛ حتى هم فتطبيق هذه المفاهيم عندهم قد يختلف من بلد إلى آخر، بل أكثر من ذلك أن تطبيقها داخل البلد الواحد قد يختلف من مقاطعة إلى أخرى.

حاول مجاهد بكل ما يملك من علم وثقافة أن يوضح هذه النقاط لزملائه في الثورة، الذين أيقنوا أنه قد سبقهم خطوات في هذا المجال.

استمرت هذه الحال فترة ولا شيء يتغير، فكان النظام أصمُّ لا يسمع إلا صوته، وهذا شيء طبيعي، فالظالم لا يحب إلا سماع صوت سوطه.

بالرغم من كل ذلك، كانت الحقيقة التي لا يمكن لإنسان عاقل أن ينكرها، أنه لا حكم دون حكم الشعب ولا استقرار ينبثق إلا من إرضاء هذا الأخير.

حاولت الأجهزة الأمنية بالتعاون مع مناصري النظام قمع الشعب بالقوة. فازداد البطش، والضرب، والتعذيب، وذلك في محاولة من الأجهزة الأمنية إعادة سيطرتها على البلاد.

فكان شعبًا أعزلًا مقابل أنظمة ومناصرين مدججين بالسلاح.

ولما كان في كل مؤسسة وفي كل زاوية أشراف، فكان لا بد من أشراف العسكر الانضمام إلى الشعب.

فبدأت الانشقاقات في المؤسسات المختلفة والجيش كان هو البداية.

فأدرك بعض الضباط أن الديموقراطية الغربية وحرية التعبير والمظاهرات السلمية تصبح عاجزة حين تواجه نظامًا لا يؤمن بها أساسًا. فالمفاهيم السياسية كالديموقراطية والحرية والمعارضة لا يمكن أن تؤتي ثمارها إلا إذا التزم بها الطرفان، المنتفض والمنتفَض ضده.

ففي الدول المتقدمة: أيُّ نظام يسقط إذا لم يلبِّ نداء شعبه، أي أنه يرحل إذا ما قام الشعب بسحب الوكالة منه.

ولكن هذا لا يمكن أن يحدث في ظل الأنظمة العربية، لأنها أنظمة قائمة على الظلم وتزوير الوكالات الشعبية.

حدثت الانشقاقات، وتم تكوين جبهة عسكرية سميت باسم المقاومة الوطنية لحماية المواطنين العزل الذين ينادون بالحرية والديمقراطية وسقوط النظام. هذا الوضع لم يرق للنظام وأجهزته، وتحولت الثورة من ثورة سلمية إلى ثورة مسلحة.

أدرك حينها أن الثورة السلمية لن تفضي إلى تغيير، وأن مواجهة الرصاص لا تكون إلا بالرصاص.

تطوع في صفوف المقاومة الوطنية، وخضع لعدة تدريبات على أيدي عساكر الثورة، وتم تعيينه في صفوف فوج الدبابات.

كان مقاتلاً شرسًا لكنه في نفس الوقت كان يراعي الكثير من خصومه، فهو يحاول ألا يكون في موقف هجومي، وإنما كان على الدوام في موقف المدافع وهذا مشروع.

فالدفاع عن النفس وعن الغير تعترف به كل المعاهدات والمواثيق الدولية وأيضًا المعتقدات الدينية.

استمر على هذا الحال عدة شهور، وتمكن بمساعدة رفاقه من إحباط كل عمليات النظام لاستعادة قبضته على المدينة المنكوبة.

سقط النظام في هذه المدينة، وتنفس الناس قليلاً.

مرت الأيام إلى أن تم تشكيل ما يسمى بـ "أفواج المقاومة الإسلامية".

كان هذا التنظيم حسب أصحابه تنظيمًا يتخذ من الإسلام مرجعًا له، ويحلل ويحرم ما يريده. هذا التعامل لم يرق للمقاومة الوطنية ولمجاهد بالذات، فبدأت الخلافات تنشب بين هذين التنظيمين.

وعلى إثر هذه الخلافات نشبت بينهما حروبًا طاحنة، كان الهدف منها السيطرة على المدينة المنكوبة.

تمكن تنظيم أفواج المقاومة الإسلامية بإلحاق الهزيمة بالمقاومة الوطنية في هذه المدينة المنكوبة.

لم يكتف تنظيم أفواج المقاومة الإسلامية بذلك؛ بل هرع إلى اعتقال عناصر المقاومة الوطنية، وكان من بينهم مجاهد.

علم مجاهد بالأمر، فتخفى في البداية، إلا أن خوف الناس من التنظيم كان يدفع بهم إلى الإيقاع بكل عنصر من عناصر المقاومة الوطنية.

وحينما عرفت والدته بالأمر طلبت منه أن يغادر البلاد.

رفض في بداية الأمر، إلا أنه خوفًا على عائلته اقتنع بفكرة والدته، وقرر الرحيل.

تمكّن من الاتصال بأحد معارفه، والذي تولى مهمة تهريبه إلى تركيا ولكن بطرق غير شرعية، هاربًا من جحيم جمهورية النار كما أراد.

وما إن لامست قدماه الأراضي التركية، حتى تواصل مع أحد أقربائه المقيمين هناك الذين استضافوه لبضعة أيام.

لكنه لم يكن ينوي البقاء طويلاً، فقد قرر اللجوء إلى أوروبا حتى تهدأ الأوضاع في جمهورية النار، على أمل أن يتمكن من العمل هناك وإعالة أسرته..

فهو ما زال لا يعرف إلى أين يتوجه؟ لذا بدأ الرحيل من دولة إلى أخرى فمن تركيا إلى اليونان ومنها إلى فرنسا حيث كانت وجهته الأخيرة.

وصل إلى فرنسا أو كما يطلق عليها البعض بلاد الحريات. فقدم لجوؤه فيها، وبعد سلسلة محاكمات حصل على حق اللجوء السياسي في فرنسا وتم منحه الإقامة للبقاء فيها.

سكن في إحدى الشقق في شارع أفانو دالفورفيل.

كان هذا الشارع، شارعًا وسط منطقة شعبية، بناياته حديثة ويوجد بين هذا وذاك بيوت أسقفها من القرميد.

شارع ضيق على مساحة سيارتين ليس أكثر، وتمر باصات النقل العمومي فيه، وتحلق بالقرب منه في كثير من الأحيان طائرات متوجه إلى مطار أورلي أو عائدة منه.

فهو يبعد قليلاً عن وسط باريس، ويمكن الوصول له من خلال استخدام القطار الذي تبعد محطته مسافة خمس دقائق سيرًا على الأقدام، ولكن

يتطلب ذلك بكل الاحوال عبور جسر بون داشوازي الذي يعلو نهر السين أحد أشهر الأنهار في فرنسا.

ورغم أنه وسط منطقة شعبية إلا أنه هادئٌ وقريبٌ من أشهر المتاجر التجارية التي يمكن الوصول إليها من خلال استخدام وسائل النقل العمومية كالحافلات.

ويضاف إلى ذلك، أن الأسواق الشعبية شبه يومية في هذا الشارع، ويمكن للمارة شراء ما يحتاجونه من حاجاتهم اليومية.

وما يميز هذا الشارع بالفعل هو أن المرء قد يستطع شم رائحة الخبز الفرنسي والكرواسون بشكل شبه يومي لأن يوجد به العديد من المخابز التقليدية.

كان مذهولا بما رآه في مدينة باريس من عمران، ومن معالم سياحية قديمة. ظل يتجول في شوارعها، ويتعرف على المدينة، ويقارن بين كل شيء فيها وكل ما قد تربى عليه في بلده.

كان هادئًا، ساكتًا في أغلب الأحيان لا يتحدث مع أحد خصوصًا أنه لا يتكلم اللغة الفرنسية، كان يفعل ما يفعله أي غريب في وطن غير وطنه، يراعي إشارات السير، وينتظر في الصف إذا ما أراد شراء شيءٍ.

وأثناء مروره في أحد شوارع باريس التقى صدفةً بأحد معارفه في جمهورية النار، وعندما رآه كأنه رأى كنزًا؛ فالبشر هم أيضًا قد يكونون كنوزًا وقت احتياجهم، فصرخ باسم ذلك الشاب حتى التفت إليه، وما إن تقدم منه حتى أخذه بالحضن.

جلس مع ذلك الشاب الذي يدعى "معتز" في أحد المدرجات المطلة على برج إيفل، وبدأوا يتبادلون الأحاديث، فأخبره أنه حصل على اللجوء في فرنسا، وتمكن من تحصيل شقة في باريس.

ابتسم في وجه ابتسامة صفراء، فقد كان معتز من مؤيدي النظام ومن المستفيدين منه، ولم ينس تمرد مجاهد وزملائه على النظام في جمهورية النار خصوصًا أنه خسر تجارته وأملاكه بسبب هذه الثورة.

تظاهر بالود والمحبة له، إلا أنه كان ينوي الانتقام منه لما كان قد حدث لتجارته وأملاكه.

تبادل الاثنان أرقام الهواتف ليتمكنا من لقاء بعضهما البعض في المرات القادمة.

ثم غادر، كان معتز يلتفت خلفه بنظراتٍ ثاقبة يملؤها الكره، تحمل في طياتها وعيدًا صامتًا بما سيفعله به، رغم إجادته التامة لإخفاء مشاعره وإظهار عكس ما يشعر به.

ظل مجاهد يكمل مسيرته للتعرف على المدينة أكثر وأكثر، فكان كل يوم ينبهر بشيء جديد سواء من حيث تخطيط الطرقات، وتنظيم المباني التجارية، ويتوقف بين الحين والآخر للتحديق في المباني الحكومية والأثرية.

وبعد مرور عدة أيام، اتصل بمعتز الذي دعاه لزيارته في شقته، قبل أن يقوم هو بدعوته.

غادر شقته قبل الموعد المحدد بوقتٍ كافٍ، ومرّ على أحد المتاجر ليشتري بعض الأطعمة والمشروبات التي ينوي تقديمها لمعتز، وحين وصل أمام المبنى، توقف أمامها فجأة، وتملّكه شعور غريب دفعه للتراجع والعودة إلى شقته، كأن هناك قوّة داخلية تنازعه تُلحّ عليه بأن يعود..

ورغم ذلك الإحساس الثقيل الذي امتلكه فجأة، لم يسمح لنفسه بالتراجع، فطبعه تغلّب على حدسه وكيف لا، وهو ابن الرجل الذي إذا وعد أوفي وإن

قال فعل، فكثيراً يطرح إحساسه جانبًا رغم يقينه أنه على صواب لكي يقوم بحفظ وعد وعده للآخر.

أكمل خطواته بترددٍ خفي، حتى وصل أمام الباب وقرع الجرس، فُتح الباب ليظهر معتز بوجهٍ مبتسم يرحّب به كأنما ينتظره منذ زمن لذا كان جالساً خلف الباب.

دخل الشقة بخطى مترددة، فأخذته رائحة عطر خفيفة تملأ المكان، وأثاث مرتب بعناية يوحي بشخصٍ لا يترك التفاصيل تمرّ عبثًا.

أمضى السهرة معه وتبادلا أطراف الحديث كأن بينهما صداقة قديمة ولم يروا بعضهم منذ زمن، كان معتز يعامله بودٍّ لافت يبالغ في الكرم والترحاب، يضحك بصوت خافت ويختار كلماته بدقة وكأن كل شيء مُعدّ مسبقًا.

ورغم هذا الدفء الظاهري، ظلّ إحساس غامض يسكن أعماقه كأن شيئًا ما ليس في مكانه، كان قلبه ينبض بتحذيرٍ صامت، يخبره أن هذا القرب قد لا يكون آمنًا، وأن توطيد علاقته بمعتز قد يحمل ما لا يُحمد عقباه.

لكن كيف يُصدق حدسًا لا دليل له؟ وكيف يبتعد عن شخص لم يُظهر سوى اللطف؟

ظلّ مترددًا بين العقل والإحساس بين ما يراه وما يشعر به، وكأن الغموض يسكن خلف ابتسامة معتز الوادعة..

أنهت الليلة وعاد إلى منزله، وعند دخوله شقته وبمجرد تغير ملابسه استلقي على سريره وخلد إلى النوم.

نام لساعاتٍ طويلة ولكنه استيقظ فجأة على حلمٍ غريب أربك هدوءه.

استفاق ووجهه مبلل بالعرق، وقلبه ينبض بقوة لا يعرف لها سببًا، لكنه حاول تجاهل الأمر، وأقنع نفسه بأنها مجرد تهيؤات لا معنى لها.

رأى في منامه مائدة ممتلئة بالطعام، لكن شيئًا ما في تفاصيلها كان مقلقًا، الوجوه من حوله باهتة، والضحكات مصطنعة، ورائحة خفيفة للسم تنبعث من كل قطعة طعام.

نهض من سريره، شرب قليلًا من الماء، ثم عاد لينام، كأن شيئًا لم يكن... غير مدرك أن الأحلام أحيانًا ليست سوى رسائل مبطّنة من باطنه الذي لا يكذب.

وبعد مرور بضعة أيام، قام معتز بدعوته مرة أخرى ولكن هذه المرة لشرب القهوة في أحد المقاهي الكائنة في أحياء باريس، فقبل الدعوة.

وبعد أن وصل إلى المقهى المحدد رأه جالسًا على إحدى الطاولات واضعًا قدمًا فوق الأخرى، تبادل الاثنان السلام وجلس على الكرسي الموجود أمامه وأصبحا يتبادلان الأحاديث عن اختلاف الحياة بين فرنسا وجمهورية النار؛ فكان معتز يحاضر فيه ويتغنى بالنظام والعادات السائدة في وطنه وينتقد ثقافة وعادات فرنسا فيتطرق إلى موضوع المرأة ويصفها بأنها ناقصة وأنها عورة ومكانها الطبيعي العمل في منزلها، تفاجئ من كلامه ولكنه رد عليه ببراءة..

- المرأة ليست عورة، وإلا لكنا جميعًا أبناء العورات، وليست ناقصة وإلا كنا كلنا ناقصين. هي ليست نصف المجتمع فحسب، بل أصبحت تمثل أكثر من ثمانين بالمئة منه بعطائها وصبرها ودورها في تربية أجياله.

المرأة الفاضلة هي حجر الأساس في بناء المجتمع السليم، فهي من تُنشىء أجيالاً وتغرس فيهم القيم الفاضلة والأخلاق، بينما يقضي زوجها وقته في المقهى.

هي رمز للحنان، لا تنسى أهلها ولو على حساب راحتها، ورمز للصبر، تتحمل ضيق الحال مع زوجها، وعندما يرزقه الله يتجاهل صبرهااوينسب الفضل لنفسه.

المرأة تكافح إلى جانب الرجل، ليصل إلى القمة، وتهمل نفسها وصحتها وجمالها في سبيله، ليكون أول من يلومها على مظهرها.

يا عزيزي ما تفضلت به ليس من عاداتنا ولا من تقاليدنا ولا من مفاهيمنا، فالمرأة لم تكن يومًا في الإسلام ناقصة أو عورة، فالإسلام عندما جاء كرّم المرأة تكريمًا لم تلحظه في العصر الذي سبق الإسلام ولا في مختلف المجتمعات غير الإسلامية، فقد أوصانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بمعاملتها بالإحسان.

هز "معتز" رأسه رغم أنه غير راضٍ عن كلامه، ولكنه صمت أمام رده عليه، وانتقل إلى موضوع آخر ليبحث عن بعض الخلل في فكر مجاهد.

حالُه كحال كثيرين، يتجاهلون كل ما تمتلكه من علم وثقافة، وينقبون عن زلاتك، لا لشيء إلا ليقنعوا أنفسهم أنهم أفضل منك.

بعض الناس ينصّبون أنفسهم أساتذة وقضاة، لا ليهذبوا فكرك أو ينيروا طريقك إن أخطأت، بل ليتصيدوا زلاتك ويكشفوا نواقصك، متناسين أن الكمال لله وحده.

ليس منا من هو كامل، فكلنا نحمل في داخلنا عيوبًا ونواقص، لكن فضل الله علينا أن يسترنا كي نحافظ على مكانتنا واحترامنا في أعين الآخرين. لم نخلق لنكون بلا عيوب، بل أوُجدنا الله ناقصين، نحتاج لبعضنا البعض ونكمل بعضنا البعض.

وأكمل حديثه فانتقل إلى مفهوم الوطنية، فيعرفها من وجهة نظره على أنها التطبيل والتمجيد للحاكم الذي يظن أنه الأعلم بمصلحة البلاد، حتى لو كان على حساب ظلم الناس. فيرى أن الوطنية ما هي إلا حب الحاكم ونظامه مهما كان ظالمًا، وأن أي خروج عليه يعتبر خيانة وعمالة.

ضحك مجاهد ساخراً من كلامته وقد استفزته ضحكته، ثم سأله:

- من علمك هذا؟

لم يجد معتز ما يقوله واكتفى بالصمت للحظات قبل أن ينطق أخيرًا:

– إنها الحقيقة.

فرد عليه..

- إن الوطنية تعني الانتماء للوطن لا للحاكم الذي يجهل مضمونها هو الآخر. فالأنظمة تزول، أما الوطن فيبقى. فالوطنية هي تغليب مصلحة الوطن على أيّة مصلحة أخرى، وعدم الإضرار به أو بأبنائه.هي حفظ أموال الدولة وعدم إهدارها، ورفض تغليب المصالح الشخصية على المصلحة العامة. كما تشمل الاستهلاك الرشيد لموارد الوطن وتوزيع ثرواته على المواطنين بشكل عادل وليس بمحاصصته بين الحاكم وأعوانه. وتتجلى أيضًا في حرص المواطن على نظافة وطنه، وحماية بيئته والإلتزام بالقوانين التي ترعى مصالح الشعب ككل، لا مصالح فئات محددة.

يا "معتز"

لا تحقر من شأن كل ما يأتي من الغرب، فالغرب نفسه استفاد كثيرًا من علومنا وتقاليدنا الحميدة وسعى إلى تنميتها وتطويرها وتقدم بفضل ذلك.

نحن أصل العدالة والأخلاق فقد وصف الوحي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم قائلاً: "إنك على خلق عظيم" ولم يقل له "على مُلك عظيم".

فالأخلاق كانت دائمًا الأساس في كل شيء. لا أخفي عنك أن الغرب تعلم كثيرًا من الإسلام، من قيم الصدق والوفاء إلى الاهتمام بنظافة الشوارع، وإحترام البشر والحيوانات، وحتى العناية بالنباتات والأشجار.

رغم كل ذلك، لهم ثقافتهم ولنا ثقافتنا الخاصة. فالكثير من المفاهيم والحريات التي تطرح لديهم لا تصلح للتطبيق في مجتمعاتنا كما هي، لأننا مجتمع محافظ بطبعه له عاداته وتقاليده، ومن واجبنا أن نصون قيمنا ومبادئنا لكي لا نذوب في ثقافة غيرنا.

لم يرق هذا الكلام لمعتز ليس لأن مضمونه غير مقنع بل لأن قائله هو مجاهد العدو الباطن والصديق الظاهر.

هذا حال كثيرٍ منّا، لا يقتنع، لا يُقيّم الكلام بمضمونه وواقعيته، بل يُحاكمه بناءً على قائِله. فالآراء تُقاس بقائلها لا بحقيقتها وصوابها... كثير من شعوبنا اعتادت أن تكون قطيعًا تسير خلف الراعي، تقبل ما يقوله دون مراجعة أو تمحيص.

أنهى كلامه مع معتز وغادرا المكان وتوجه كل منهما إلى شقته. وفي الطريق، قضي معتز يُمعن التفكير في صديقة المزيف، لا لشيءٍ إلا لأنه يحمل فكرًا مختلفًا عن فكره.

وهذا هو داء بعض البشر: الحقد لمجرد أن الآخر لا يُشبههم. يختلف عنهم في لونه، ديانته، أو أفكاره، فيرون في هذا الاختلاف تهديدًا لهم.

إنه مرضٌ خبيث اسمه العنصرية، داءٌ لا يُشفى منه صاحبه، مهما أغدق عليه الزمن من نعم.

وما إن وصل مجاهد إلى المبنى الذي يعيش فيه حتى التقى بجارته، تلك الشابة العشرينية التي تملك جمالًا هادئًا يخطف الأنظار دون تكلف، فهي ذات بشرة ناعمة بلون الحليب، ينسدل فوقها شعر ذهبي لامع يتحرك مع النسيم بخفة كأمواج بحرٍ في صباح مشرق، عيناها واسعتان بلون السماء حين تشرق عليها شمس باريس فيهما دفء وسرّ كأنها تخبئ خلفهما حكاياتٍ لا تُروى. شفاهها وردية مرسومة بدقة تتلوّى عند الابتسام فيزداد وجهها إشراقًا.

تمشي كأن الأرض لا تكاد تشعر بخطواتها، تحمل في ملامحها هدوء الريف الفرنسي، وفي ابتسامتها دفءٌ يذيب برودة الغربة، نظرت إليه وابتسمت في وجهه، فرد الابتسامة بابتسامة، وتوجه إلى شقته وهو ينظر خلفه ليعيد النظر إلى تلك الفتاة الجميلة.

دخل مجاهد شقته، وصورة جارته قد حُفرت في مخيلته.

جلس على أريكته، وقرر الالتحاق بالمدرسة ليتعلم اللغة الفرنسية ليستطيع أن يتحدث إلى الناس ومن بينهم تلك الفتاة، خصوصًا أن الكثير من الفرنسيين لا يجيدون اللغة الإنجليزية أو بالأحرى لا يحبون التحدث بها.

اللغة بالنسبة للدول الغربية ومن بينها فرنسا أمرًا سياديًا، فهم يفرضون على الأجانب المقيمين في فرنسا تعلم لغتهم واستخدامها في حياتهم اليومية.

فإتقان عدة لغات لا يُعد مقياسًا للثقافة لديهم، فالمواطن يظل جاهلاً إذا ما أتقن كل لغات العالم ولم يُجِد لغته الأم.

جاهل من يحدثك بهذه اللغة أو تلك وهو لا يتقن قواعد لغته الأصلية.

وهذا ما يقوم به بعض العرب إذ يعتقدون أن التحدث بلغة أخرى غير اللغة العربية التي لا يعرفون قواعدها وأسسها هو دليل تقدم ورقي.

وبالرغم من أنه أجنبي إلا أنه بالنسبة للفرنسيين يتوجب عليه أن يتعلم ويتقن اللغة الفرنسية لكي يستطيع تيسير أموره الشخصية من شراء حاجاته الشخصية إلى إمكانية إبرامه بعض العقود.

بحث عن المدارس التي تقوم بتدريس اللغة الفرنسية، فوجد إحداها وقام بالتسجيل بها عبر الإنترنت.

كان فخورًا بعمله هذا، فهو قد وضع رجله في خطوتها الأولى ليندمج مع المجتمع الفرنسي، فالخطوة الأولى للاندماج في أيِّ مجتمع هي تعلم لغته، لتتمكن فيما بعد من التعرف على ثقافته والتعمق في طريقة تفكيرهم.

أمضى ليلته يتفحص مواقع التواصل الاجتماعي ليطّلع منها على الأحداث التي تجري في وطنه، ورغم كل هذا، لم يكن سعيداً في حياته، فهي كانت أشبه بالسجن الكبير، فلا يفعل شيئًا سوى السير في الطرقات نهارًا والجلوس على الأريكة يفكر ليلاً.

الغربة هي الأخرى سجنٌ كبيرٌ، قضبانه المسافات، وجدرانه الفراق عمّن نحب؛ وعقوبته الوحدة كأننا في زنزانة انفرادية لا يسمع فيها سوى صدى الحنين.

وأثناء سهوته استحضر ماضيه عندما كان مسجونًا في أحد السجون الأمنية وشبه حياته الحاضرة بالأيام التي قضاها في القبو.

فالسجن ليس بالضرورة جدرانًا تقيد الجسد، فقد يُحرم أن الإنسان من حريته وهو خارج القضبان. وكم من حرٍ طليق لا يفقه معنى الحرية، ولا يمارسها في حياته. فالحرية خلقت لتُعاش، ومن لا يعيشها، لا يعي إنسانيته ولا يقدر قيمته أو ذاته.

ظل يفكر حتى أنهكه التعب، فنام على أريكته.

في اليوم التالي، ذهب لشراء بعض الأشياء من المتجر القريب من شقته. هناك التقى بجارته الفرنسية "جاكلين" ابتسم لها حينما رآها، فردت هي الأخرى بابتسامة. عندما أنهى شراء حاجته، انتظر عند باب المتجر لتخرج، وحينما خرجت من المتجر ولاحظتْ أنه ينتظرها في الخارج، ففرحت دون أن تظهر له ذلك، وأكملت طريقها فلاحظت أنه يتبعها، فتوقفت إلى أن اقترب منها..

**********

# الفصل الثاني

# غربة وحنين

فكانت أكياسها تبدو ثقيلة، فاقترب منها مجاهد، وتحدث معها بالإنجليزية، وعرض عليها المساعدة في حمل الأكياس، فرحبت بلطفٍ وأعطته بعضها.

ومع كل خطوةٍ يقطعانها بدأ الحديث بينهما يتدرج من المجاملة إلى التعارف، حتى وصلا إلى المبنى الذي يسكنان فيه.

عند باب شقتها وضع مجاهد الأكياس بهدوء، فشكرته بابتسامةٍ دافئة، ثم عرضت عليه أن يدخل لاحتساء كوبٍ من الشاي معها.

ابتسم بلطف واعتذر بأدب، مقترحًا عليها بدلًا من ذلك أن يدعوها يومًا ما لشرب الشاي سويًا في الخارج.

أخبرته أنها متعبة من الدراسة، وأن عليها أن تقوم بتحضير مواد اليوم التالي، لكنها وعدته أنها ستلبي دعوته لشرب الشاي في نهاية الأسبوع، واتفقا على يوم السبت.

سُر بكلامها وذهب إلى شقته، ليستريح قليلاً. وما إن جلس على أريكته حتى بدأ يفكر بها وبجمالها. مرت الليلة بسرعة عليه وعلى "جاكلين" التي لم تفارق تفكيره.

في اليوم التالي، استيقظ واستحمَّ وأرتدي ملابسه وذهب مسرعاً إلى بائع الزهور القريب من شقته ليشتري بعض الزهور، وعاد إلى المبنى الذي يقطن فيه. وما إن صعد المبنى حتى توجه إلى شقة جاكلين فوضع لها الزهور أمام الباب وسط مشاهده جارته الأخرى المسنة التي سُرت بما رأت.

وعندما فتحت جاكلين باب شقتها وجدت أمامها باقة من أجمل الزهور فأمسكتها وهي مبتسمة. فتلك هي نوعية الزهور التي تحبها، ثم أغلقت الباب ودخلت شقتها ووضعتها في إناءٍ مخصص لها، ثم حملت كتبها، وغادرت إلى جامعتها.

كانت جاكلين بالسنة الأخيرة في كلية الحقوق، طالبة متفوقة في دراستها في الجامعة. جلست كعادتها في الصفوف الأولى كأي طالبٍ مجتهد، وأثناء المحاضرات بدأت تفكر بمن آتي لها بتلك الزهور الجميلة..

وبرغم التفكير الكثير إلا أنها لم تستطع تحديد هوية الشخص الذي وضع الزهور أمام باب شقتها.

أمضت يومها في التفكير في هوية الشخص واضع الزهور لدرجة أنها جلست بعد انتهاء المحاضرات لما يقرب من نصف ساعة تفكر وتتذكر لعلها تصل إلى نتيجة.

غادرت جاكلين قاعة المحاضرات منهكة متعبة من كثرة المعلومات التي شرحها الأساتذة، وحينما وصلت إلى باب شقتها استقبلتها رائحة الزهور وهي تنساب برقة من تحت الباب، لتوقظ في داخلها أفكارًا كانت قد حاولت الهروب منها.

دخلت شقتها ولامستها بيدها، بعدها قررت تحضير طعامها وأكلت. وجلست قليلاً تقلب في الكتب، وفكرها مشغول في شيءٍ آخر. بعد عدة محاولات فاشلة لتدرس قليلاً، ذهبت إلى سريرها لتحاول أن تنام إلا أن عقلها ما زال يعمل ويفكر في هوية واضع الزهور بهذه الطريقة.

لم تصل إلى نتيجة، فقررت أن تعتبر أن ما جرى حادثًا عابرًا كأن شخصٌ قد أخطأ في العنوان، تمكنت من النوم في تلك الليلة، ثم استيقظت وحضرت أمتعتها لتذهب إلى جامعتها.

وأثناء فتحها الباب وجدت أنواع جديدة من الزهور تتساقط على الأرض هذه المرة بشكل جميل، يبدو أن من يضعها يتفنن في كل مرة لإبهارها، فهذه المرة وضعها على مقبض الباب للتساقط عند فتحه.

حملت جاكلين الزهور، ووضعتها في إناءٍ آخر بجانب الزهور القديمة. استمر هذا الحال لأيام، فكان مجاهد يضع الزهور في مقبض باب شقة جاكلين، ويغادر أو يضعهم أمام الباب، وتفتح هي الباب، وتقوم بجمع الزهور وتضعها في المكان المخصص لها، التي اشترت الكثير منهم لوضع الزهور فيهم..

اقترب الموعد الذي سيتقبلان فيه..

وفي هذا اليوم لم يقم بوضع الزهور لها، وإنما قرع جرس بيتها وسألها عن المكان والساعة التي يمكن أن يلتقيا فيه، فأخبرته عن مقهى قريب من المبنى الذي يقطنان فيه، وقد أخبرته أنها ستكون الساعة السابعة جاهزة ليخرجا سويًا.

حينئذ أخبرها أن لديه موعدًا آخرًا، وسيأتي إلى المقهى مباشرةً فلم تمانع ذلك، وعند الساعة السادسة حضّرت نفسها، وارتدت فستانًا ورديًا ناعمًا يُبرز أنوثتها ويُشبه تورّد خدّيها، وتعطّرت بعطرها الفرنسي المفضّل، ثم توجهت بخطواتٍ واثقة إلى المقهى حيث الموعد المرتقب.
في هذه الأثناء، كان هو لدى بائع الزهور فاشترى لها باقة مميزة ليقدمها لها، ثم توجه إلى المقهى، ووصل قبل أن تصل، وجلس على طاولة موارية للشارع لكي يراها إذا ما أتت، وعندما رآها من زجاج الباب، حمل باقة الزهور ووضعها خلف ظهره ليفاجئها بها.

دخلت المقهى، فرأته أمامها وما إن تقدمت من الطاولة التي يجلس عليها حتى فاجأها بباقة الزهور وقدمها لها، أخذت الزهور منه وهي تسأله:

-أ أنت؟

رد عليها مبتسماً:

- نعم!

سُرت وكانت الابتسامة تملأ وجهها.

- لم يُخيَّل لي أبدًا أنك أنت من كنت تقوم بوضع الزهور بمقبض باب شقتي كل يوم، لقد فكرت في كل الأشخاص الذين أعرفهم ولم أصل إلى نتيجة، فكرت بالبعيد ولم يخطر ببالي أن من أبحث عنه أقرب لي من تفكيري.

حينئذ قال لها:

- دائمًا نحن هكذا، نبحث عن أشياء قد تكون أقرب إلينا من لمح البصر، كثير منا يبحث عن صفات أو أمور يمتلكها لكنه لا يدرك ذلك. فالكثير يسعى للغنى دون أن يعلم أن الغنى الحقيقي ليس مالاً بل غنى المشاعر والأحاسيس. وكثيرون يبحثون عن العز والمجد، ولكنهما يظهران في أخلاق الإنسان لا في المناصب أو الدرجات. وهناك من يلهث وراء الشهرة، ليكتشف لاحقًا أنها قد تكون فخًا تؤذي صاحبها. ونجد من يفتش عن حبيب في أصقاع الأرض، وهو أقرب إليه من مخيلته، ومن يبحث عن صديق قد يكون هو نفسه زوجته وأبناؤه. كثيرون يرحلون بعيدًا ليلتقوا رفيقًا يفهمهم ويدعمهم في حياتهم، ومع ذلك أفضل و خير رفيق أو داعم للإنسان هو الإنسان نفسه، حتى الجمال نبحث عنه ونذهب إلى أطباء التجميل لنصنعه لكننا ننسى دائمًا أن في كل منا جزء جميل خفي نحن لا نراه.

نظرت إليه بعينين تلمعان بإعجاب خفي، وقالت:

- يبدو أنك تمتلك ثقافة عالية.

أقترب منها وبصوت هادئ أجابها وقال: " كل منا يمتلك في داخله شيئًا فريدًا وما علينا سوى أن نكتشف ما يميزنا عن الآخرين ونقوم بتنميته".

ثم أكمل:

- إن الله لم يخلق أحدًا عبثا بلا هدف، فخلق لكل إنسان دورًا في هذه الحياة وعليه أن يؤديه.

سُرت بما سمعت، وطلبت منه أن يحدثها عن نفسه.

شرد بعينيه كأن روحه غادرت المكان، بينما ظل جسده جالسًا أمامها في صمتٍ غامض حتى التفت إليها..

- أنا الضائع في هذه الحياة، فنصفي هنا ونصفي هناك..

- لم أفهم شيئًا مما تقصد!

تنهد ثم قال:

- جسدي هنا يمشي، لكن روحي واقفة هناك، تتفرج على عبث الحمقى في وطني. لقد انقسمت إلى نصفين؛ نصف يعيش هنا في الواقع الذي أعيشه ونصف يعيش هناك يغوص في الذكريات ويرتجف خوفًا على مصير وطني من الأيام القادمة.

وكيف لي أن أعيش بنصف فقط! فلا يمكن للمرء أن يعيش ناقصًا، فلا بد من أن يحضن هذا النصفُ النصفَ الآخر لكي يكمل حياته. صدقيني يا جاكلين؛ كثيرون منا يعيشون بيننا بلا روح وكأنهم غير موجودين بيننا.

نظرت إليه معقبة:

- وكيف يكون ذلك؟

أجابها..

- إننا أجسادٌ تسير بلا حياة، وأرواح مدفونة دفنها الماضي ولم يعرف أصحابها بعثها من جديد. أصبحنا كالآلات التي تُشغّل عند شروق الشمس وتُطفأ مع غروبها. أصبحنا غرباء عن الحياة، الابتسامة، الفرح والسرور، لا يسيطر

علينا إلا البؤس، الكآبة والحزن. لا نفعل شيئًا سوى مواساة بعضنا البعض أو انتظار مرور الوقت دون أن ندرك سبب هذا الانتظار أو نهايته.

نظرت إليه بحسرة وسألته:

- لم كل هذا البؤس الذي أنت فيه؟

رد عليها..

- هذا الوضع الطبيعي بالنسبة لأمثالنا، نحن العرب الذين بكينا لحظة ولادتنا، ولكننا لا ينقطع بكاؤنا إلى أن نموت فيبكى علينا، ثم نظر إليها وتأسف لها وقال: أعتذر أن لقاءنا الأول كان هكذا، ولكنه الواقع الذي نعيشه ولا نستطيع أن نهرب منه.

بابتسامة خفيفة قاطعته وقالت له:

- دعك من كل هذا، فأنت الآن هنا وليس هناك ويا ليت هنا هناك.

ضحك وقال لها:

- بالفعل يا ليت هنا هناك، ولكن من هم هنا لا يسمحون أن يكون هنا هناك. فهمت أنه يتحدث عن حكومتها وصناع القرار فيها الذين يعيشون على معاناة الآخرين، فقالت له:

-ليس الأمر مقتصرًا على الدول وحدها، فكثيرٌ منّا عن وعي أو دون وعي يعيش على ألم غيره.

حاول حينها أن يُغير مجرى الحديث، فابتسم بلطف وطلب منها أن تحدثه قليلًا عن نفسها.

فابتسمت فقد عرفت أنه يريد تغير مجرى الحديث معها وقالت.. أنها في السنة الأخيرة في كلية الحقوق وترغب بأن تصبح محامية فيما بعد، فَسُرَّ بما سمعه

وأخبرها حينئذ أنه كان طالبًا في كلية الحقوق قبل اندلاع الثورة في جمهورية النار، فَسُرَّتْ هي الأخرى بذلك وأخبرته أنها ستساعده للالتحاق بكلية الحقوق.

أصبح مسرورًا بما سمعه منها، فراح يسألها عن حياتها الشخصية. أخبرته أن تنحدر من مدينة في جنوب شرق فرنسا تدعى "كورسيكا" حيث يقيم والداها هناك، وأنها أتت إلى باريس لتلتحق بالجامعة فيها.

سألها إذا ما كانت مسرورة في العيش بباريس فردت قائلةً:

- إن باريس حلم كل إنسان، فكل إنسان يحلم أن يعيش بها رغم ازدحامها الشديد. ثم نظرت إليه وسألته عن رأيه في باريس فأجابها قائلاً:

- إن باريس جميلة بوجودك فيها.

تبسمت فرحةً بما قاله، وأكمل قائلاً:

- ما قيمة المدن دون أهلها؟ بل ما قيمة هذا الكرة الأرضية دون البشر فيها؟ فالجمال جمال النفوس فيها، والحنان حنان البشر فيها.

أومأت برأسها في هدوء، وقالت في سرّها وهمسها الداخلي: صدقت.

بعد صمتٍ قليل قاطعته ابتسامات متبادلة بينهما، سألته عن مشاريعه في باريس وماذا يود أن يفعل، فأخبرها أنه سيلتحق بمدرسة ليتعلم اللغة الفرنسية لكي يتعرف على ثقافة الشعب الفرنسي، عرضت عليه أن تساعده في تعلم اللغة الفرنسية، فوافق على عرضها دون تفكير..

بعد أن انتهيا من حديثهما طلبت منه أن يغادرا، فانصرفا، وأثناء خروجهما من المقهى كانت الدنيا تمطر كثيرًا، فحملت جاكلين مظلتها ولاحظت أن مجاهد لا يحمل مظلة فعرضت عليه أن يحتمي من المطر تحت مظلتها، فوافق.

حملت جاكلين المظلة ومشت معه تحت المطر، قال لها في الطريق:

- مفاجأتان لا يمكن لعاقل أن يرفضهما: الحب والمطر.

ابتسمت له وقالت:

- رومنسي حقًا أنت.

فرد عليها:

- حبات المطر ما هي إلا حنين الحب، تغسل القلوب، تنقيها، وتعلقها ببعضها البعض.

- فلسفة رائعة.

قالت جاكلين وطلبت منه أن يكمل.

فأكمل قائلاً:

- المطر غذاء الزهور، والزهور غذاء القلب، والقلب نبض الحب، والحب هو جوهر الوجود وأساسه.

قالت له بصوت خافت:

- أكمل.

فقال:

- المطر هو طهارة الأرواح قبل الأجساد، يغسل القلوب وينقيها من كل خبث وحقد.

في هذه الأثناء، كانا قد وصلا إلى المبنى الذي يقطنان فيه، وما إن دخلا إليه حتى التقيا بـ"ماري" السيدة العجوز جارتهما، فبادلاها السلام وسُرت بما رأته ثم شاورت بيدها على زهور موجودة أمامها وهي مبتسمة له..

- أومأ برأسه مبتسمًا، فقد كان يعلم ما تقصده.

توجه كل منهم بعد ذلك إلى الطابق الذي يقطن فيه بعد أن استقلوا المصعد. وعند خروج جاكلين وماري إلى الطابق الذي يقطنان فيه قالت ماري لجاكلين:

- إن هذا الشاب يبدو لطيفًا فشاطرتها الرأي.

أكمل هو طريقة إلى شقته وكان تائهًا وكأنه قد فقد شيئًا، نعم لقد فقد. فهو فقد أعز ما يملك قلبه بعد أن شعر بالحب منذ أول لقاء بينه وبين جاكلين، كان هو العاشق الذي يدع قلبه لدى المعشوق، يدعه أمانة ويتوجب على المعشوق الحفاظ عليها، فما الحب إلا حفظ أمانات هذه الأمانات هي القلوب التي تحفظ بعضها البعض.

ما أصعبها من أمانة! بل إنها الأمانة الأثقل على إنسان أن يحملها لأنه يحملها بقلبه وليس بأعضاء جسده.

دخل مجاهد شقته وهو فرحٌ بما قد حدث، وكأن روحه التي نسيها في وطنه ردت إليه، فقلب الحبيب الصادق هو أيضًا وطن، وطنٌ للمحبوب يسكنه، ولا يرضى أن يمسه بضرر.

خلد إلى نومه وعلى غير عادته نام بسرعة وكأن حديثه ولقاءه بجاكلين كان نوعًا من المهدئ وعلاجًا لقلقه من هذه الحياة، إنه الأمان الذي يشعر به الإنسان، ومن منا لم يكن أمانه شخصًا معينًا واحدًا.

فالطفل أمانه أمه، والبنت أمانها أبوها، والزوجة أمانها زوجها، والعشيقة أمانها عشيقها. لا شيء يضاهي الأمان على هذا الأرض، فإذا فقدناه فقدنا كل شيء حتى أنفسنا، فنصبح غرباء عن هذه الحياة.

في هذه الأثناء، كانت جاكلين لا تزال تفكر فيه وفي معاناته في باريس خصوصًا أنه غريبٌ فيها ولا يتكلم لغتها، ورغم كل هذا كانت مسرورة بلقائه منبهرةً بفلسفته الرائعة وثقافته العالية.

شيءٌ تحرك داخلها من أول لقاء جمعها به وكأنها كانت تنتظره منذ سنين، وبعد تفكير عميق من قبلها استمر إلى ما بعد منتصف الليل أخذت عهدًا على نفسها بألا تتخلى عنه وأن تقدم له كل المساعدة التي تجعله يعيش ويتأقلم في باريس.

ما أجمل أن يأخذ الإنسان عهدًا على نفسه بألا يتخلى عن شخص أعجب به أو أحبه! إنه ميثاق ما بين الإنسان ونفسه، ميثاق وقعه الإنسان بمشاعره وأحاسيسه وإنسانيته.

نامت في هذه الليلة، واستيقظت على عالمٍ آخر عالمٍ لا يعرف سوى الحب، هذا العالم الأخير فيه ينظر الإنسان إلى كل شيء على أنه جميل إن لم أقل مثالي.

وبعد أن شربت قهوتها المعتادة فكرت في أن تذهب إلى شقة مجاهد لتدعوه لتناول الفطور معها، خرجت من شقتها وتوجهت إلى شقته لتدعوه إلى شقتها، ولكن في كل مرة تحاول قرع جرس باب شقته تعود وتتردد وترجع إلى المصعد، في المرة الثالثة وأثناء تقدمها من جرس باب الشقة إذ به يخرج من شقته؛ ففرح عندما وجدها أمامه، وسألها إذا ما كانت آتيه لزيارته أم أنها كانت تستعد للنزول؟

شعرت بالخجل وهذا جعل وجها يبدوا محمرًا...فقالت له: أنها أتت لتدعوه لتناول الفطور معها في شقتها.

وافق على دعوتها وتوجها سويًا إلى شقتها.

حضرت القهوة له ليشربها إلى حين انتهائها من تحضير الفطور.

بدأ هو بشرب القهوة، ودخلت هي مطبخها لتقوم بتحضير الفطور لهما. قامت بسلق بعض البيض، وسخنت بعض الحليب، ووضعت أصنافًا مختلفة من الجبن الفرنسي، ثم دعته إلى طاولة الطعام.

جلس مجاهد معها، وعيناه لا تتحركان وهو ينظر إليها يتأمل جمالها وهي تنظر إليه وتأكل. لاحظت أن مجاهد لا يأكل ولا يفعل شيئًا سوى التحديق بها فسألته قائلةً:

- ما بك أيها العربي؟ لماذا لا تأكل؟

رد عليها:

- ومن قال لك أني لا آكل؟

تنهدت وقالت:

- انظر إلى طعامك، ما زال كما وضعته.

ضحك وقال:

- أنا آكل من عينيك، فكلٌ واحد منا يأكل مما يحب.

ابتسمت وقالت:

- وهل هذا يعد أكلًا؟

جاوبها بفلسفته المعهودة قائلاً:

- إن غاية الطعام أن يشبع الجسد، أما أنا فلا يشبعني إلا سحر جمالك وبهاء حضورك، يا من أشرقت في حياتي كشمس بددت كل ظلمة.

ظهر على ملامحها الخجل..

أنهى كل منهما فطوره وقام مجاهد وساعدها في توضيب طاولة الطعام وحمل الأطباق ووضعها في المطبخ، وبعد أن قاما بتنظيف الطاولة والأطباق سألته عن مخططه لهذا اليوم، فأخبرها أنه سيخرج ليمشي في الشارع قليلاً، فطلبت منه أن يأخذها معه وأنها ستعرفه على الحارات القديمة في باريس.

لم يمانع اصطحابها، فبدلت ملابسها وخرجا سويًا من باب شقتها. وأثناء خروجهما من الباب التقيا بماري تلك المرأة العجوز التي ينحني ظهرها قليلاً كأن السنين أثقلت عليه، وعلى وجهها ترتسم خرائط الزمن، خطوط دقيقة نسجها العمر بحكمة وهدوء. عيناها غارقتان في بريق الذكريات فكلما راتهم تذكرت ماضيها حتى نظراتها تحمل دفء الأمس وحنين السنين الماضية.

لم تتردد في سؤالهما إلى أين هما ذاهبان، فأخبرتها جاكلين أنهما ذاهبان للسير في الحارات القديمة في باريس، فسُرت ماري بما سمعت.

نظر مجاهد لجاكلين وطلب منها سؤالها إذا ما كانت هي الأخرى ترغب في أن تأتي معهما.

فعرضت جاكلين على ماري الخروج معهما، ولكنها فرفضت.

نظر إليها مجاهد وهزّ رأسه بإيماءة خفيفة يدعوها لمرافقتهم وأمسك يدها وقبلها، فابتسمت حينها ولبّت دعوته دون تردد..

خرج الثلاثة واستلقوا القطار لبضع محطات، ثم نزلوا وبدأوا يسيرون في الحارات القديمة في باريس.

كانت الطرقات هناك ضيقة والمنازل والأبنية لا تزال أثرية قديمة، وراحت ماري تشرح لهم عن هذه الأبنية وتاريخها كأنها تحفظها أكثر من اسمها. وبعد مشي لمدة ليست بقليلة طلبت منهم ماري الجلوس في أحد المقاهي ليستريحوا قليلاً.

جلس الثلاثة في مقهى قديم تاريخيًا وتبادلوا الأحاديث، فيتحدث مجاهد وتقوم جاكلين بترجمة ما قاله للعمة ماري لأنها لا تعرف اللغة الانجليزية. كانت جاكلين تنظر إلى مجاهد وهو يتحدث وكأنها البنت التي تصغي لأبيها، خصوصًا أنه كان يتحدث عن الحب، وما إن نظر إلى الورود الموجودة في المقهى حتى قال لها:

- يُشبهك الورد؛ فكل تفصيل فيه أجمل من الآخر.

احمرت خدودها، ولاحظت العمة ماري ذلك، وطلبت منها أن تقوم بترجمة ما قاله مجاهد لها.

خجلت جاكلين وقالت لها:

- لا شيء فهو يحدثني عن جمال هذا المكان.

لم تصدق العمة ماري ما قالته خصوصًا أنها كانت مضطربة بعض الشيء، إلا أنها لم تعلق على الموضوع، لاحظ مجاهد اضطراب جاكلين وسألها:

- ماذا قالت للعمة ماري؟

فأخبرته أنها كذبت عليها في الترجمة، تنهد مجاهد وهو ينظر إلى عينيها قائلاً:

- سلام لتلك العينين التي حين شاهدتا اللسان يكذب، استشاطتا غضبًا وأبتا أن تكونا شريكتين في جريمته.

تبسمت جاكلين وقالت له:

- خفف من روعك أيها العربي.

فنظر إليها وأكمل حديثه:

- لقد اجتمع بكِ الورد والزهر، فيك جمال الأول ورائحة الثاني.

تنهدت جاكلين، فتبسمت العمة ماري لكلام مجاهد دون أن تفهمه وقالت:

- لا عليك يا صغيرتي، لا أحتاج لترجمة فأنا من يجيد لغة العيون.

أمام هذا الإحراج وبعد أن قامت جاكلين بترجمة ما قالته العمة ماري لمجاهد قال لها مجاهد:

- ماذا أفعل؟ عيناكِ فتنة لا تقاوم؛ في كل مرة أنظر إليهما أشعر باضطراب يجتاح جسدي فينعش قلبي ويبلسم روحي.

ثم أضاف قائلاً: صدقيني، أنا من يحسد عينيه حينما تراكِ.

أمام هذه الجلسة الرومنسية طلبت العمة ماري من مجاهد أن يحدثها عن نظرته للمرأة، فقال مجاهد:

- المرأة كالوردة؛ تزداد تألقًا كلما اعتنيت بها، وكالزهرة يفوح عبيرها حين تُسقى بماء الحب، لكنها أيضًا كالشوكة، تجرح من يعبث بمشاعرها أو يقلل من قدرها.

وما إن ترجمت جاكلين كلام مجاهد للعمة ماري حتى صفقت بكل ما تملك من قوة وقالت له:

- نعم الشاب أنت، ونعم الفلسفة فلسفتك... ثم أكملت كلامها محدثه جاكلين.. لا تدعيه يفلت من يدكِ، فهو الكنز الذي تبحث عنه كل امرأة، الكنوز ليست بالضرورة أن تكون أموالًا، فقد تكون أصدقاء، أحبابًا أو حتى مكانًا نشعر فيه بالطمأنينة.

سُرت جاكلين بما سمعته وحاولت جاهدًة ألا تلتقي عيناها بعينيه بعد حديث العمه، إذ خشيت أن تفضحها تلك اللمعة المفاجئة في عينيها، فآثرت أن تُبعد

نظرها عنه، فطلبت منهم أن يغادروا كلٌ إلى منزله لأن عليها أن تقوم بتحضير دروسها للأسبوع المقبل.

وقرر وقررت دفع الحساب، وبعد شد ورد أصرت خلاله العمة ماري على دفع الفاتورة، دفعت ثمن المشروبات وتوجه كل منهم إلى شقته بعد أن استقلوا القطار ومشوا قليلاً حتى وصلوا المبنى الذي يقطنون فيه.

دخل كل منهم شقته، جلس مجاهد على أريكته يفكر في جاكلين وكأنها حبيبته منذ سنين وراح يقول:

- قضيتي أنتِ، قضية لا تقبل استئنافًا ولا تمييزًا، حبي لك قرار مبرم لا يقبل الطعن بأي طريق، محاميكِ قلبي، القاضي قلبي، المدعي هو الآخر قلبي وما متهم غير قلبي.

في اليوم التالي، استيقظ مبكرًا، لم يقم بأي شيء سوى أنه قصد بائع الزهور، وقام بشراء باقة جميلة إلى جاكلين، ووضعها في مقبض الباب وأرفقها برسالة كتبها بخط يديه مكتوب فيها:

"حتى الشمس تُسخر لكِ، فهي لا تشرق إلا لتهمس لكِ: صباح الخير."

خرجت من باب شقتها فوجدت باقة الزهور وقرأت ما هو مكتوب في الرسالة، فكانت فرحتها لا توصف، ثم عادت إلى شقتها فوضعت الزهور في الإناء المخصص لها ثم خرجت لتلتحق بجامعتها؛ وإذ بمجاهد ينتظرها أمام باب المبنى، وبعد أن تبادلا السلام سألته عن وجهته، فأخبرها أنه كان ينتظرها ليراها وقال لها:

- كل الصباحات متشابهة إلا الصباح الذي ألتقيكِ فيه، كأنه صباح العيد فحتى كل من حولنا يبدو مسرورًا. ضحكت وقالت له:

- لم تكتفِ؟

ثم تبسمت له وقالت:

- إذا هيا لتقوم بتوصيلي إلى الجامعة.

كانت فرحته غير مسبوقة، وكأنه ميت عاد للحياة من جديد، وفي الطريق حدثته وأخبرته أن إشراقة الشمس تبدو جميلة، فرد عليها:

- نعم إشراقة الشمس جميلة، لكنها لا تغني عن إشراقة وجهك.

التفتت له وعيناها يملأها الخجل وبدأت تحكي له عن دراستها والمشاكل التي تعانيها وأنه يجب أن تنهي دراستها بسرعة لكي تتمكن من أن تجد عملًا مريحًا يدرّ عليها دخلًا يكفيها دون عناء، كان حلمًا بسيطًا لكنه بعيد المنال..

وعدها أنه سيقف بجانبها وراح يشجعها ويقول له: سيكون لك ما تسعين من أجله، فأنت تبدين طالبة مجتهدة وتحبين دراستك.

كان لكلامه أثر إيجابي عليها لأنها أحست أنها وجدت من يؤمن بها ويشجعها على ما تقوم به، فما أحوجنا في بعض الأوقات لوجود هكذا أشخاص في حياتنا يؤمنون بنا ويشجعوننا على ما نقوم به، فرفع المعنويات ليس كلامًا عابرًا يقال وإنما هي روح تُعطى للإنسان ليكمل طريقه ويبدع فيه. قام مجاهد بتوصيلها إلى مدخل الجامعة فشكرته على توصيلها. رد مجاهد وقال لها:

- لا داعي لأن تشكريني، فقط ابتسمي.

ابتسمت جاكلين وسألته:

- لماذا تطلب مني أبتسم؟

رد قائلاً:

- إن في ابتسامتك أثر في بث الأمان والطمأنينة في قلوب البشر وبالذات قلبي أنا.

تبسمت مرة أخرى وودعته ودخلت إلى جامعتها، وعاد هو إلى أدراجه وسار قليلاً إلى أن وجد مقهىً فدخله وطلب كوبًا من القهوة وشربه ووجه جاكلين لم يغادر مخيلته، راح يقول في نفسه:

.. آه يا جاكلين، لو تعلمين كيف تبدين في عيني...أتحدى كل فناني العالم، بل وأطباء التجميل أجمعين، أن يجسدوك كما أنتِ في داخلي، كما رُسمت في وجداني. لا أحد يشبهك، فأنتِ نسخة لا تتكرر.... نعم إنه الحب، الحب هو الطريق الوحيد للنجاة في هذه الحياة وللتخلص من كل البؤس الذي يحيط بنا، فقلوبنا عطشى والقلوب العطشى لا يرويها إلا الحب الصادق.

أنهى قهوته، ثم قام ليمشي حتى وصل إلى بيته، فجلس كعادته على أريكته يفكر في الخطوة القادمة.

يعلم مجاهد أن جاكلين تميل إليه كما يميل إليها، لكنه رغم ذلك قرر أن يصارحها بحبه ويقول لها بشكل مباشر أنه يحبها، ورغم أن كل المؤشرات تدل على أنها تميل إليه إلا أنه كان خائفًا من أن تكون تسايره في كلامه فقط مسايرة؛ خصوصًا أنهما من ثقافتين مختلفتين.

سيطر الخوف عليه، وشرع يتذكر كلامه معها وردة فعلها عن كل عمل يقوم به تجاهها وبعد كل كلام يقوله لها. كان مجاهد شبه متأكد من أنها تتقبله؛ إلا أنه لم يكن واثقًا إذا ما كانت قد وصلت إلى درجة الحب أم لا. انتظر مجاهد في شقته وراح يراقب الشارع من نافذته ينتظر عودتها، وما إن رآها تطل من بعيد حتى بدل ملابسه وخرج من شقته قاصدًا شقتها، قرع جرس باب شقتها وما إن فتحت له حتى أخبرها أنه يريد أن يتحدث معها في موضوع هام. دعته إلى الدخول وما إن جلسا بوجه بعضهما البعض حتى بدأ

العرق يتصبب منه، في هذه اللحظة بدا التوتر عليها هي الأخرى وطلبت منه أن يتحدث..

شرع مجاهد في التحدث، ولكنه كان مرتبكًا، ينظر تارةً إلى الشمال وطورًا إلى اليمين، فأصبح حديثه المبعثر يثير ضحكها..

شعر مجاهد ببعض الضيق من ردّة فعلها، فسألها مستغربًا:

ما الذي يضحككِ؟

أجابته ببساطة:

لم أفهم شيئًا مما قلته، كن أكثر وضوحًا.

تنهد مجاهد بصوتٍ خافت، ثم همس لها:

أحبكِ.

نظرت إليه وقالت:

- لمَ تقولها بصوتٍ خافت؟ قلها بصوتٍ أعلى، فردد قوله بالقول:

أحبكِ يا جاكلين.

راحت جاكلين تضحك مرة أخرى، ولكن هذه المرة بطريقة هستيرية.

وإزاء ردة فعلها هذه غضب مجاهد ونهض من مكانه وتوجه إلى الباب ليغادر شقتها، فما كان من جاكلين إلا أن نهضت ووقفت أمام الباب ومنعته من المغادرة وطلبت منه أن يعود لمكانه لتتحدث إليه.

رغم انه كان غاضبًا من ردة فعل جاكلين إلا أنه عاد ليجلس في مكانه ليستمع إليها. بدأت حديثها بالقول:

- يا مجاهد أتعتقد أن الحب هو كلمة؟ أتعتقد أن الحب يمكن حصره بكلمة أحبك؟ الحب يا مجاهد قبل هذه الكلمة الحب هو اهتمام، عطاء، تضحية، بذل المستطاع وغير المستطاع، كنت أرى حبك في نظرتكِ إليَّ، في استيقاظكِ باكرًا لتذهب وتأتي لي بالورود.

كنت أرى حبك في خوفك عليَّ من المطر، حين كنت تمسك المظلة فوقي وتتبلل أنت، بتغزلك بي وبإختيارك لذلك أنقى العبارات وأقربها إلى قلبي، في تشبيهك لي بكل شيء جميل، واعتبارك لي أمانك وطمأنينتك.

رأيت حبك في اهتمامك بكل تفاصيلي: توصيلك لي إلى الجامعة، تناولك فطورك معي، رسائلك لي، حنانك عليَّ وتشجيعك وتحفيزك لي.

كنت أرى حبك بإنتظارك لي من خلف نافذتك بلهفة لا يمكن اخفائها. أليس كل هذا حبًا؟ ماذا أفعل بكلمة أحبكِ إذا لم تقدم كل هذا لي؟ فالحب ليس كلمات تقال، بل عطاء مستمر دون انتظار المقابل، هو بذل جهد لإسعاد من نحب. فالنفس بطبيعتها لا تميل للكلمات، وإنما لمن يدللها ويغمرها بالإهتمام ويحتوي أدق تفاصيلها بالحنان والرعاية.

وقف مجاهد وسأل جاكلين عن شعورها هي تجاهه فقالت له:

- أبعد كل هذا تسأل؟ لن أقول لك أن من لا يفهم حبنا لا يستحق أن نحبه، بل سأقول لك: أنا أحبك بكل ما في داخلي من مشاعر.

كانت فرحته فرحةً غريبةً، ابتسامةً عريضةً تخللها تغرغرعينيه وكأنه يريد أن يبكي من شدة الفرح، لأنه أعتبر أن الحياة بدأت تبتسم له وأن جاكلين رزقه وعوضه بعد كل الأحداث المؤلمة التي عاشها. قال مجاهد حينها:

- لا يحزن امرؤ على كل ما فات من عمره، فلا بد لكل كسر أن ينجبر ولا بد للشمس أن تشرق بعد كل غياب، هذه هي الحياة ليل ونهار، فلا الليل يبقى ليلاً ولا النهار يظلُّ نهارًا.

تقدمت جاكلين منه وقالت له:

- قبِّلني!

تأملها لوهلة، ثم أشاح بوجهه رافضًا.

حزنت، فطلب منها أن تتفهمه، وراح يشرح لها عن عاداته وتقاليده وأنه يتبع دينًا يُحرِّم لمس المرأة قبل الزواج، بل إنه يُحرِّم تواجد المرأة مع الرجل في مكانٍ مغلق لوحدهما، وأضاف مجاهد قائلاً:

- نعم أعلم أني أخطأت حينما أتيت إلى شقتكِ وجلست معكِ وحدكِ، لكن إن خطئي مرةً لا يُبرر لي الاستمرار في الخطأ أو حتى تكراره، كما أن من أحب إنسانًا بصدق حافظ عليه حتى من نفسه ومن شهواته.

تفهمت جاكلين وجهة نظره وطلبت منه أن يخرجا ليتمشيا قليلا.

ظلَّ يسير بجانبها، ينسج من كلماته همسات غزل مرة يقول : "كل شيء بقربكِ يزهر، حتى العدم يحيا ويدخل في كوكب الوجود"، وأخرى يتأمل عينيها قائلاً : "جمال عينيك لا يُحجب، حتى شريعتنا أوجبت ستر كامل الجسد وأطلقت العينين"، وما بين هذا وذلك ينظر إليها مبتسمًا ويهمس: "تأخرت في الإبصار، فما فتحت عيناي حقًا إلا حين رأيتك".

كانت سعيدة بكل شيء حولها، تنظر إلى الأشياء بفرحة طفولية تلمع عيناها تلمس بيدها الأزهار، اما هو فلم يحاول أن يفوّت أي فرصة ليتغزّل بها ويهديها أعذب العبارات، وفي كل مرة تنطق فيها اسم "مجاهد"، يسرح قليلًا كأنه يسافر بصوتها، وقال لها:

"حتى اسمي يختلف رنينه حين يخرج من بين شفتيكِ، فالحروف حين تنطقينها تصبح مغموسةً بالذهب."

لم تكن تملك أمام كلماته سوى أن تبتسم أحيانًا، أو تحدّق في عينيه بصمتٍ مليءٍ بالسعادة أحيانًا أخرى..

تمشيا قليلاً حتى طلبت منه العودة كلٌ منهما إلى شقته لكي تستريح قليلاً من عناء الدراسة.

عادوا إلى العمارة وقام بتوصيلها إلى باب شقتها ثم انصرف إلى شقته.

أصبح يقوم كل يوم بتوصيلها إلى جامعتها وما إن تدخل من باب جامعتها حتى يعود إلى شقته أو أنه يبدأ في التجوال بالشوارع والأسواق.

استمرت هذه الحال لفترة، واهتمامه بها وحبه لها يتزايد يومًا بعد يوم، وحينما حلّت فترة الأعياد رغبت جاكلين بالذهاب لزيارة أهلها، فطلبت منه أن يرافقها في زيارتها ليتعرف عليهم، تردد في البداية، ولكنه وافق على مرافقتها في نهاية الأمر بعد أن أصرت على ذلك.

قام كل منهما بتوضيب أمتعته وتوجها سويًا إلى محطة القطارات لينتقلا إلى جنوب شرق فرنسا إلى مدينة كورسيكا، مسقط رأس جاكلين ومكان إقامة والديها.
وما إن وصلا إلى محطة كورسيكا حتى استقبلهما والدها بحفاوة، والذي كان ينتظرهما على الرصيف، بينما كانت أمها تنتظرهما في المنزل.

عرَّفت جاكلين والدها عليه وأخبرته أنه حبيبها وسندها في باريس، سُر والدها بما سمعه وأحبه من أول لقاء.

عاد بهما والدها إلى منزل الأهل، والتقت هناك بوالدتها تلك المرأة الأربعينية، التي تشبه ابنتها في زرقة عينيها السماويتين، لكنها لا تشبهها في ملامح الوجه؛

فوجهها يحمل شيئًا من العبوس، عبوسٌ لا يُعرف سببه. تفاجأت الوادة من أن ابنتها ليست وحدها وأنها تصطحب معها شابًا. عرَّفت جاكلين والدتها عليه، فكانت والدتها غير مسرورة بمعرفته، وتوجهت إلى تحضير طاولة الطعام ودعتهم إلى تناول الغداء، وأثناء جلوسهم إلى طاولة الطعام راحت والدة جاكلين تتحدث إليها وتسألها عنه. فراحت تخبرها عن أصله وأنه لاجئ هرب من الثورة التي كانت في جمهورية النار، لم يتمكن من فهم ما يدور من حديث بين جاكلين ووالدتها إلّا أنه استطاع أن يفهم أن الحديث يدور عنه.

رفضت والدة جاكلين ارتباط ابنتها به، وبدأت تراقب حركاته وهو يأكل وقد لاحظ مراقبتها له، بل ورفضها له، وعند الانتهاء من تناول الطعام طلبت جاكلين منه مرافقتها ليقوم بتفريغ أمتعته في إحدى غرف المنزل لكنه رفض.

رفض أن يقوم بإفراغ أمتعته في الغرفة، وأخبر جاكلين بأنه سيتوجه ليحجز له غرفة في أحد الفنادق القريبة حالما تنهي زيارتها إلى أهلها ويعودا سويًا. فهمت جاكلين أن مجاهدًا قد فهم الحديث الذي دار بينها وبين والدتها. راحت تعتذر له عما بدر من والدتها، وأخبرته أن والدتها تخاف عليها ليس أكثر، وأنه مع الوقت ستتعرف عليه أكثر وستحبه وهو أيضًا سيحبها. طلبت منه أن يبقى معهم في المنزل فامتثل لرغبتها خصوصًا أنه تفهم خوف والدتها عليها لا سيّما أنه أجنبي ينتمي إلى ثقافة غريبة عنهم، كما أوصته بعدم الاحتكاك مع والدتها كثيرًا وأن يقوم بتجاهلها قدر الإمكان إلى حين أن تتعود عليه، فوعدها بفعل ذلك. وبعد أن قام كل منهما بتوضيب أمتعته خرجا سويًا للتجول في الحدائق القريبة من منزل والديها، وكأن فرنسا في ذلك الفصل ترتدي أبهى زينتها، فالأشجار تمايلت برقةٍ تحت نسيمٍ عليل والزهور نثرت عبيرها في كل ركن حتى بدا الهواء مشبعًا بعطر اللافندر والياسمين.

حتى العصافير كانت تغرد فوق الأغصان كأنها تعزف سيمفونية للفرح.

وقف مجاهد يتأمل هذا الجمال بدهشة طفل، ثم التفت إليها وقد ازداد إعجابه بها، وراح يتغزل بها كعادته، وكأنها أجمل ما في هذا المشهد الجميل..

أمضيا سويًا يومًا رائعًا ثم عادا إلى المنزل وجلسا مع والدي جاكلين. فشرع والد جاكلين في التحدث إلى مجاهد باللغة الإنجليزية كونه يعرف القليل منها، فراح مجاهد يحدثه عن حياته في جمهورية النار وثقافته العربية.

أعجب والد جاكلين بشخصية مجاهد وبثقافته خصوصًا أنه كان خفيفًا على القلب لا يتحدث إلا قليلاً ولا يجيب على أسئلته إلا بالقدر المطلوب، فكان خير ممثل للثقافة العربية، لا يتدخل بأي شيء لا يعنيه، صادق بكلامه، مقنع وواقعي.

سَرَّ هذا الشيء جاكلين التي اقتنعت أن صداقةً سوف تربط مجاهد بوالدها مع الوقت. كان كل ذلك تحت أنظار والدة جاكلين التي لم تكن مقتنعة بما يحدث، فهي لم تكن معترضة على مجاهد كشخص؛ وإنما معترضة على كونه أجنبي ويمتلك ثقافة تختلف عن ثقافتهم بعض الشيء.

وبعد أن أنهوا حديثهم تناولوا عشاءهم ثمّ خلدوا جميعًا إلى النوم. تمدد مجاهد على السرير ولم يستطع أن ينام وهو يفكر بوالدة جاكلين متخوفًا على حبه الذي قد ينتهي إذا ما قامت والدة جاكلين بإقناعها بوجهة نظرها. بقي حتى ساعة متأخرة من الليل يضع كل الاحتمالات التي قد تحدث إلى حين أن فوض أمره إلى ربه وتوكل عليه، نام قليلاً واستيقظ على صوت جاكلين التي أيقظته ودعته إلى شرب القهوة معها ومع أبيها.

نهض من سريره وتوجه إلى المطبخ فوجدها وأباها لوحدهما، فسأل جاكلين عن والدتها التي أخبرته أنها في الخارج. طلب والدها منه الجلوس، فجلس وقدمت له حبيبته القهوة فبدأ والدها بالتحدث إلى مجاهد وقال له:

- إنّها مسألة وقت، دع الأيام تمر ومع الوقت سوف تحبك كما أحببتك. ثم أكمل قائلاً متحدثاً عن زوجته-: إنها امرأة طيبة يا بني، وهي تخاف على ابنتها الوحيدة وهذا أمر طبيعي، لكن الأمور ستتبدل حينما تتعرف إليك أكثر.

عرف مجاهد أن جاكلين تحدثت إلى والدها عن قلقه من شعور والدتها تجاهه، فهز رأسه وقال له:

- لعل ما سيحدث يكون خيرا.

بدأ مجاهد ووالدها يتبادلان الأحاديث أمام عينها التي كانت صامتةً، ولكنها لامعه سعيدة بما تراه، تستمع إليهما ولا تشترك معهما بالحديث إلا نادرا. استمرت هذا الحال إلى أن عادت والدتها من الخارج، فدخلت جاكلين المطبخ وشرعت في مساعدة والدتها في تحضير الفطور، أما والدتها فأخذت تتحدث معها وتطلب منها أن تقطع علاقتها به.

لم تتفاجئ كثيراً، ولكنها رفضت كلامها وطلبت منها أن تعطيه فرصة، خصوصًا أنها حكمت عليه بناء على أصوله وثقافته، فبالنسبة لجاكلين لا يجوز الحكم على شخص من مجرد النظر إلى أصله أو ثقافته، ثم قالت لها:

- ومن قال لك أن أصولك فرنسية أو حتى أوروبية؟ ألا يمكن أن يكون جدك لاجئًا أتى وسكن هذه البلاد؟ كيف لنا أن نُقيِّمَ الإنسان بالنظر إلى أصله أو شكله أو حتى لونه؟ هل كل اللاجئين مجرمين وعنصرين ومفسدين؟ وهل نحن الفرنسيون جميعنا ملائكة؟ ألا يوجد بيننا من هو فاسد، ومن هو مجرم ومن هو عنصري؟ لماذا يا أمي تحكمين على الشخص قبل أن تعرفيه أو حتى قبل أن تتحدثي إليه؟ أليس هذا بظلم للشخص؟

سكتت والدتها وقالت:

- نعم، إن كل العرب يشبهون بعضهم البعض.

ردت عليها:

- قد يكونوا يشبهون بعضهم البعض من حيث الشكل ولون البشرة، ولكنهم يختلفون في تفكيرهم وثقافتهم وأخلاقهم، حتى أني أنا ابنتك وأنا أختلف عنكِ يا أماه في الفكر والثقافة.

انتهي هذا الحوار الذي دار بينهم لبضع دقائق، وأكملت جاكلين تحضير الفطور على طاولة الطعام، أما والدتها فرفضت حتى فكرة الجلوس معهم لتناول الفطور متعللة أنها قد تناولت فطورها في الخارج.

لاحظ مجاهد أن جاكلين ليست على طبيعتها، فقد بدت حزينة وصامته لا تفعل شيء سوى أن تنظر في طبقها من دون أن تأكل منه شيئًا. سألها مجاهد قائلاً:

- ما بكِ يا جاكلين؟

لم تسمعه أول مرة فكانت تبدو وكأنها ليست موجودة، فعاود وكرر سؤاله.

ابتسمت وهي تحاول عدم النظر إلى عينه وقالت له: إن كل شيء على ما يرام، لكني أفكر في باريس وأنه يتوجب علينا العودة اليوم.

تفاجأ والدها من قرارها وسألها عن سبب قرارها المفاجئ هذا، فأجابته أنه يتوجب عليها تحضير دروسها للفترة المقبلة وأنها تحتاج للمزيد من الوقت من أجل إنجاز ذلك.

في هذا الوقت كان مجاهد يشعر بكل ما يدور حوله ويعلم طبيعة المعركة التي سيخوضها مع والدتها من أجل أن يحظى بابنتها الوحيدة.

جمع كل منهما متاعه وقامت هي بتوديع والدتها التي بقيت في المنزل، في حين أن والدها قام بتوصيلهما إلى محطة القطارات ليأخذا القطار المتوجه إلى باريس.

في محطة القطارات قام والدها بتوديع كل من جاكلين ومجاهد فبعد أن حضن ابنته قام والد جاكلين بحضنه هو أيضاً وطلب منه أن يدير باله عليها ويكون دائمًا إلى جانبها خصوصًا في هذه الفترة الصعبة التي تمر بها بسبب دراستها.

وعده مجاهد بفعل ذلك وأخبره أنه لن يتخلى عنها مهما حدث.

وثق والد جاكلين بكلام مجاهد وقال له:

- لا أعلم يا بني، إن لدي إحساس أن هناك شيئًا سوف يحدث، ولكني رغم ذلك يا بني أثق بك وبوعدك لي.

دخلوا إلى إحدى عربات القطارات وجلسوا بجانب بعضهما البعض، نظرت جاكلين إليه وطلبت منه أن يجلس بوجهها لأنها تريد أن تتحدث معه. بدأت كلامها بالاعتذار له عما بدر من والدتها فرد عليها مجاهد بالقول:

- يا حبيبتي لا يتوجب عليك الاعتذار، أنا متفهم خوف والدتك عليك، فوالدتك محقة بموقفها.

استهجنت جاكلين من كلامه فقالت له:

- محقة!

أقترب منها ممسكاً يدها:

- للأسف نعم.

طلبت منه أن يشرح لها ماذا يقصد؟ رد عليها قائلًا:

- يا جميلتي والدتك رأت الوجه القاتم لتصرفات بعض اللاجئين، رأت كذبهم وإستغلالهم لحسن نية الدول التي استقبلتهم، فتزوجوا الأوروبية فقط ليُحسِّنوا من أوضاعهم القانونية، وامتهنوا التحايل على قوانين العمل ليتلقوا مساعدات من مكاتب الخدمات الاجتماعية بغيروجه حق، وتهربوا من الضرائب، وهددوا الأمن وتلفوا الأملاك العامة وأساءوا للمكان الذي آواهم.

لكن يا حبيبتي؛ إن أكثر المتضررين من هذه الأفعال هم بعض العرب أنفسهم، فما فعله البعض لا يُعبر عن الكل، فمثلما هناك من أساء لنا بأفعاله هناك من عمل واجتهد وقدم صورة مشرفة عنا نحن كعرب ومسلمين. مع الأسف، لم يكن الغرب منصفًا في حكمه، فحكم عليهم ككل أنهم كذابون، نصابون، ومحتالون، وهذا بالطبع لم يكن سارًا لكل شخص يخاف على سمعتنا وثقافتنا...الإنسان في غربته لا يمثل نفسه؛ بل يمثل أمته، فهو رسولها إلى الأمم والبلدان الأخرى. صدقيني لم أعد أعتب على أيّ إنسان لا يثق بنا كعرب أو مسلمين، فالثقة لا تبنى بالكلام، بل بالأفعال... فمن ذا الذي سيصدق كلامنا وأمانتنا إذا كان ما يراه منهم عكس ذلك! فيرانا نكذب في أبسط الأمور ونخون بعضنا بعضًا عند أول مفترق!

لقد تبدلنا كثيرًا، كنا يومًا أفضل وأعظم الأمم، بلغنا ذروة المجد ووصلت علومنا إلى كل العالم لأننا كنا صادقين، رحماء، نؤتمن على الأمانات، نجلّ العلماء، نتطلع إلى العلم والثقافة ونحاول نشره، لا لجني المال أو الجاه وإنما ابتغاءَ تقدم البشرية وتطويرها...

هذا هو تاريخنا وماضينا المشرق....

لكن للأسف... لا يروي التاريخ إلا من يخجل من واقعه الحالي أو لأنه فقد الأمل في المستقبل..

أين نحن الآن؟

خبثاء حتى مع بعضنا البعض، نخادع أنفسنا قبل أن نخدع الآخرين، نأكل الحرام قبل الحلال، همُنا أنفسنا وليس ديننا وسمعة من نمثل، لا نحترم عهودنا إلا نادرًا، نحتال لأجل أية منفعة صغيرة، نناقض كلامنا وأفعالنا، ولا نحفظ أمانة أو وعدًا. ندعم الظالم في ظلمه إذا ما كان ذلك لمصلحتنا؛ فما كان غريبًا أن ينظر إلينا الآخرون بهذه النظرة. ومع ذلك، ليس كلنا سواء، فليس كل العرب والمسلمين هكذا.

هذا ما فعلته والدتك، بالطبع أنا لا ألومها، فهي قد تكون تعرفت على أناس من هذا النوع لذلك قد تكون قد بنت حكمها بناءً على هذا الأساس.

إن المسألة مسألة وقت كما قال والدك، ستتعرف عليَّ مع الوقت وأنا واثق أنني سأجعلها تحبني إذا كانت مؤهلة لذلك.

ردت عليه وقالت:

- كيف ستكون مؤهلة لذلك؟

رد عليها:

-لعلي أكون محظوظًا وأستطيع إرضائها، رغم علمي أن هناك أناس لا يُرضون مهما فعلنا لهم، لن يحبوننا، حتى لو قدمنا لهم الشمس هدية أو ملكناهم الأرض بقمرها. هم لن يحبوننا مهما بذلنا من جهد... لن يفعلوا... وعلى النقيض من ذلك، هناك من يظل يحبنا رغم تقصيرنا تجاههم أو حتى أذيتنا لهم.

هؤلاء هم البشر وهذه هي طبيعتهم من يحبك سيحبك، حتى لو كنت على قلبه حملاً من الجمر، ومن سيكرهك؛ سيكرهك، حتى لو كنت على قلبه نسمة هواء عليلة.

- نعم أنت محق، ولكن...؟

قاطعها مكملاً:

- ولكن يجب عليَّ أن أحاول، أليس كذلك يا جميلة فرنسا؟

- نعم هذا ما قصدته.

- لا عليك سأبقى أحاول من أجلكِ مهما كلف الأمر، وتابع مجاهد كلامه - سأفعل كل شيء من أجلكِ، من أجلكِ فقط كل طلباتها مجابة، عدا أن تطلب مني أن أرحل عنك، فهذا طلب لا يقوى قلبي على تنفيذه، فيه المستحيل والموت معًا.

اطمأنت جاكلين لكلامه وكان حبها له يزداد يومًا بعد يوم.

بقيت تنظر من نافذة القطار إلى أن نامت على كتف مجاهد الذي كان مسرورًا جدًا بفعلتها، فما الكتف إلا وسادة مريحة لرأس وقلب الحبيب سواء كان عشيق، ابن أو صديق.

كان ينظر إليها وهي نائمة كأنها ابنته التي لا تقبل أن تنام إلا في حضن وقلب أبيها ليخبئها من سواد هذا العالم الخارجي، كان يتحرك رويدا رويدا وكأنه كان يحمل قلبه بيده ويخاف أن يسقط منه وكانت هي غارقةٌ في نومها وكأنها لم تحظ بمثل هذه الوسادة من قبل.

استيقظت ونظرت إلى نفسها ورأت أنها تنام على كتفه فاستمالت قليلاً ونظرت إليه تسأله إذا ما كان قد تعب من نومها على كتفه. نظر إليها ضاحكًا قائلاً:

- ومن منا يتعب من حملان قلبه؟ هل سبق لكِ أنكِ سمعت أحدهم يقول قد تعبت من قلبي؟

تبسمت جاكلين وقالت:

- من أين تأتي بهذا الكلام؟

رد عليها قائلاً:

- أتصدقين أن الكلام يضع نفسه مكاني عندما أنظر إليكِ فيتبدل حالي وأصبح شاعرًا لا يتحدث سوى عنك ولا يقول كلامه المفعم بالحب إلا لك؟ الحب ما هو إلا ذلك الشعور الذي يُخرج من الإنسان أجمل وأنقى العبارات وأطهر الأفعال، عبارات لا يقولها ولا يدرك معناها الإنسان إلا حينما يحب، وأفعال لا يتخيل المرء يومًا أنه ممكن أن يقوم بها.

لا أكذب عليك يا جاكلين إنْ قلت لكِ إنَّ الإنسان قد يتغير كثيرًا إذا ما أحب لأن حياته تنقلب رأسًا على عقب، فيصبح الإنسان يهتم بأدق التفاصيل التي تخص الإنسان الذي يحبه، فيهتم بنوع الورد الذي يحبه واللون الذي يفضله، يلبس اللباس الذي يستحليه حبيبه، يتعطر بالعطر الذي يؤثر فيه، ويذهب معه إلى الأماكن التي يحبها، حتى لو لم يكن من قبل يحب هذه الأشياء أو أن يفضل عليها أشياء أخرى.

حتى وقت الفراق نبقى نحتفظ ببعض آثار من نحب؛ كلونه المفضل، العطر الذي يعشقه، أو أننا نبقى نتردد إلى الأماكن التي زرناها سويًا.

الحب مسؤولية وليس كلامًا نكتبه لبعضنا، مسؤولية تجاه من نحب وتجاه أنفسنا التي نحافظ عليها، ليس لأنها لنا؛ بل لأنها منذ اللحظة التي نحب فيها شخصًا نقدمها له بطيب نية.

كانت تنظر له وهي في قمة سعادتها، مسرورة ومطمئنة على نفسها معه.

بقي كل منهما يتأمل وجه الآخر حتى وصلا إلى باريس، فغادرا القطار وتوجه كل منهما إلى شقته بعد أن توقفا قليلاً مع العمة ماري وحدثاها عما دار من أحداث في مدينة كورسيكا أينْ يقطُنُ أهلُ جاكلين.

بعد برهة من الوقت قرع جرس باب شقة جاكلين فظنت أنه هو من أتى إليها لكن أملها هذه المرة قد خاب؛ فكانت العمة ماري التي طلبت منها أن تتحدث إليها. دعتها إلى الدخول فبدأت العمة تتحدث عن مجاهد وأخلاقه ثم سألتها عن إحساسها تجاهه. ردت إن مجاهدَ شخصٌ رائعٌ، صادقٌ بمشاعره، ويقدم كل ما يستطيع لها، الممكن وحتى المستحيل. ولما سمعت العمة ماري كل هذا منها طلبت منها ألّا تتخلى عنه وأردفت قائلةً:

- يا ابنتي، لا يستطيع الإنسان أن يجد كل يومٍ شخصًا يحبه هذا الحب، فالحب قد أتاك ولكِ الخيار إما تحتفظين به أو ستندمين عليه طول عمرك. الحب يأتي مرة في العمر ويأتي فقط لمن هم يشبهون بعضهم في مشاعرهم، أما بالنسبة لوالدتك فهي قد بنت رفضها له بناءً على ما رأته من غيره، وهذا بحد ذاته ظلم، فلا يجوز لنا مهما بلغنا من الحكمة أن نبني أحكامنا على ما سمعناه من الناس.

الناس فيهم الخير وفيهم الشر، بل حتى الإنسان الواحد يجمع في داخله كليهما، ويكون صالحًا حين يغلب خيره شره ويفسد حين يطلق شره العنان.

لا تسمعي كلام والدتك ولا تحكمي على شخص إلا بقدر ما رأيتِ منه، فمقياس الإنسان ليس أصله أو لبسه أو ماله أو حسبه أو نسبه؛ وإنما مقياسه تصرفاته وأخلاق...

أما نواياه فهي من عمل ربنا، الوحيد الذي يعلم بما يضمره الإنسان في صدره. فالأصل ينسى، واللباس يُبلى، والمال يزول، والحسب والنسب لا يشفعان، وتبقى تصرفات الإنسان تجاه من يحب ثابتة لا تتغير مهما تغير بنا الزمن.

طيبُ الأصل يبقى طيبًا، حتى لو قام ببعض الأفعال التي فيها الشر، وخبيث الأصل يبقى خبيثًا، لا يغيره تظاهر ولا زمن.

مجاهد طيب الأصل، وكم تمنيت أن يكون لي ولدٌ بطيبته وأخلاقه. سأدعكِ يا ابنتي لتفكري في كلامي وتنامين قليلاً.

غادرت العمة ماري شقتها، ولكن كلامها لم يغادر مخيلة جميلة باريس، فراحت تفكر في كل كلمةٍ قالتها لها إلى أن غلبها النوم. كان مجاهد في هذه الأثناء ما يزال مستيقظًا يفكر في جاكلين ووالدتها وكأنه يخوض معركة، معركة الهدف منها ألا يتنازل عنها ويخسرها بسبب والدتها. فراح يقلب الكلام في رأسه خائفًا من أن يستيقظ من حلم يعيشه، حلم لم يحلمه من قبل.

بقيَ حتى ساعات متأخرة من الليل مستيقظًا مسيطرًا عليه القلق إلى أن لاحظ أن وقت الفجر قد حان فقام وصلى لربه ودعا كطفل صغير ألّا يفرقه الله عن حبيبته التي أختارها قلبه، وضع رأسه على الوسادة محاولاً أن ينام لكنه لم يستطع فنهض من فراشه وقرر الاستحمام ثم خرج من شقته باكرًا متوجهًا إلى أحد المقاهي القريبة ليشرب قهوته.

كانت القهوة مُرة مرارةً شديدة، وما كان يفعل شيئًا سوى إضافة السكر لها، ورغم كل ذلك إلا أنها بقيت مرةً في حلقه. فظل يخاطب جاكلين الغائبة وهو يقول: "القهوة التي لا تحلّيها نظرة عينيك، يظل مذاقها مرًّا كالحنظل، مهما أضفنا لها من سكر الدنيا".

في هذه الأثناء كانت جاكلين قد استيقظت، وكأنها أحست أن مجاهد يتحدث إليها وينادِيها، فنهضت من فراشها وغسلت وجهها وبدلت ملابسها وتوجهت إلى شقته. قرعت جرس الباب إلا أن لم يفتح لها أحد.

أعادت قرع الجرس لكن دون جدوى، لم يفتح أحد. فراحت تقول بينها وبين نفسها: "قتلني الحنين فمتى ستفتح يا هذا، متى تدفئ قلبي الذي مزقه البرد وأنت بعيد عنه؟".

عادت إلى شقتها، وجلست على أريكتها تفكر بمكان مجاهد إذا ما كان في الشقة أو أنه خرج باكرًا، وما هو الأمر الذي دعاه إلى الخروج باكرًا في هذا البرد القارس.

جلست بعض الوقت، ثم ذهبت لكي تحضر فطورها وهي تنظر إلى الشارع من نافذة شقتها، وإذ بمجاهد آت من بعيد.

خرجت من شقتها وتوجهت إلى شقته تنتظره أمامها، وما أن حضر حتى تفاجأ بوقوفها أمام باب شقته، فسألها قائلاً:

- ما الذي دعاك للوقوف هنا في هذا الصباح؟

ابتسمت وهي تقترب منه وقالت:

- أنتظر من يهواه قلبي، الذي تركني نائمة وخرج وحده.

ضحك وأمسك يدها وقبلها ونظر لعيناه:

- لقد خرجت باكرًا ولم أكن أريد أن أوقظك.

تنهدت وقالت:

- هذا دليل أنك لم تشتق إليَّ، فلو أن قلبك اشتاق لدخل إلى شقتي خلسةً وأيقظني. ثم أردفت قائلةً: ألا تعلم يا هذا أن في قانون العشق يسمح لمن نشتاق إليهم أن نوقظهم ساعة نشاء؟

هز مجاهد رأسه وقال:

- لا بأس، فقد تصلحين أن تكوني كاتبة عن العشق.

ردت قائلةً:

- بل أنا مُشرّع العشق نفسه، وأنت الكتاب الذي سأكتب به كل ما يدور بداخلي من مشاعر وأحاسيس.

ضحك مجاهد وطلب منها أن تدخل لتشرب القهوة معه فوافقت ودخلت شقته.

وما إن جلست على الكرسي حتى صرخت قائلةً:

- البيض!

- ما به؟

انتفضت عن كرسيها، وركضت وهي تقول لقد نسيته على النار. تبعها يركض هو الآخر وما إن دخلا شقتها حتى شما رائحة البيض المحروق في كل مكان.

دخل مجاهد مطبخها، وقام بإطفاء الغاز. أما هي فظلت تضحك وهي تنظر له:

- لقد أنسيتني البيض يا هذا وهو على النار!

فأدار وجه لها وأنتِ لقد أنسيتني نفسي ومحوتِ كل تاريخي.

ثم استهزأ قائلاً: التاريخ الذي نقدسه ونمجده ونتعلق به حتى أصبح حاكمًا على حياتنا... فشبابنا يتزوجون استنادًا إلى سمعة الفتيات، صداقاتنا تُبنى وفق ماضي الأفراد... لا نرحم ولا نغفر لمن أخطأ في ماضيه... -نعيش دومًا في الماضي "في التاريخ"- وكأنه قدر يحرم علينا نسيانه.

نعم فالحب قد يكون الشيء الوحيد القادر على محو ماضي الإنسان ومنحه ميلادًا جديدًا...الذي ينسي الإنسان تاريخه وتاريخ غيره.

فالولادة الحقيقية للإنسان هي لحظة التقائه بمن يحب، ففيها فقط ينبض القلبُ ويشعر المرء بوجوده.

ردت عليه وعيناها تلمع وتملأها الدموع:

- لم أكن أتخيل يومًا أنه سيأتي شخصٌ يحبني لهذه الدرجة!

صدقت يا روح الروح، قبل الحب يعيش المرء كآلة تؤدي واجباتها اليومية من دراسة وعمل فقط لتأمين متطلبات العيش دون أن يشعر بطعم الحياة الحقيقي. أما حين يحب، ينتقل من مجرد العيش الباهتإ إلى الحياة بمعناها الكامل، إذ يصبح له هدف أسمى: إسعاد من يحب، البقاء بقربه، ومنحه الأمان والإطمئنان...

بعد أن سمع مجاهد كلامها اعتبر أنّه تمكن من إحداث تغير ما فيها، فقد اعتبر أنه تمكن من تغيير نظرتها إلى الحياة فكان مسرورًا بذلك وبدأ هو الآخر ينظر إلى الحياة بإيجابية أكثر من أي وقت مضى.

خلال جلوسهما أمام بعضهما البعض طلب منها أن تقوم بتحضير القهوة لكي يشرباها سويًا. لم تتأخر عليه، فقامت لمطبخها وحضرت لها وله القهوة، وما أن شرب أول رشفةٍ من القهوة حتى قال:

- هذه هي!

- من تقصد؟

رد:

- فنجان القهوة الذي طالما تمنيته هذا اليوم.

فردت عليه وقالت:

- ألم تشرب قهوة في الخارج؟

- بلى، ولكن طعمها كان علقمًا.

- ولم كان علقمًا؟

- القهوة ليست ببنها ومائها، بل بمن يُعدّها ويشاركك إحتسائها. فنجان القهوة الذي لا تُعدينه ولا تحضرينه طعمه علقم، حتى لو كان على قمة برج إيفل.

تمتمت جاكلين وقالت بينها وبين نفسها: "بالفعل إنهم العرب أسياد الشعر وكُتَّاب الغزل."

وبعد أن قاما بشرب القهوة دعاها للخروج لتناول الفطور في الخارج. لم تمانع جاكلين في ذلك، إلا أنها طلبت منه بعض الوقت لتستطيع تبديل ملابسها.

عندئذٍ قال لها مجاهد:

- لا مانع في ذلك وسأنتظرك أمام باب المبنى.

جهزت نفسها، وارتدت تنورتها الوردية المفضلة، والتيشرت الخاص بها، وزينت إطلالتها بقبعتها المميزة التي تعشقها، حاملة مظلتها في يدها. حين رآها ظل ينظر إليها فشعرها الذهبي المنسدل على ظهرها ومع ما ترتديه جعلها تبدوا وكأنها حورية بحر أتت من أجله فأقترب منها وأمسك يدها وبدوا يسيرون معاً، أما هو فكانت عيناه لا تري شيئاً إلا حبيبته.

دخلا مطعمًا صغيرًا يقدم الفطور الفرنسي الشهي وكعادته أكمل النظر إليها ويتغزل بها وهي تنظر إليه وتصغى إلى كلامه، وما إن أنهى غزله بها حتى سألته جاكلين عن موعد التحاقه بمدرسة اللغة، فوعدها أنه سيفعل ذلك قريبًا. كانت تشجعه دائمًا على تعلم اللغة الفرنسية، وتحاول أن تلقنه بعض الكلمات والعبارات التي يحتاجها الإنسان في تعاملاته اليومية، وكان مجاهد يسر باهتمام جاكلين به من هذه الناحية، كما وعدته أنها ستقوم بالاستفسار

له عن كيفية الالتحاق بالجامعة، وإذا ما كان يمكنه معادلة السنوات التي درسها في جمهورية النار.

كان لهذا الكلام أثر إيجابي على نفسية مجاهد الذي طالما كان يحلم بأن يصبح محاميًا يناصر الفقراء وأصحاب الحق في حقوقهم.

سرح في كلام جاكلين ثم نظر إليها فجأة وقال:

- أتتزوجينني؟

نظرت إليه وقالت له:

- أأنت واثق من طلبك هذا؟

رد مجاهد وقال:

- نعم بالطبع، واثقٌ كل الثقة.

طلبت منه أن يتمهّل، ريثما يستشير أهله وأهلها، ويأخذ رأيهم في موضوع الارتباط.

صمت مجاهد لحظة، ثم قال بنبرة هادئة:

موافق، سأعرض الأمر على والدي رغم أنني واثق أنه لن يمانع.

وبعد أن تناولا فطورهما، خرجا يتمشيان في شوارع باريس، حيث الهدوء الممزوج بجمال المدينة الخلاب.

كانت تمسك بيده كما لو كان ابنها الذي تخشى عليه من ضجيج الطريق، بينما هو ينظر إليها كأنها طفلته الصغيرة، يخشى عليها من أعين المارة ومن نسمة هواء قد تعبث بشعرها.

كان ذلك الحب الذي يجعل كلاً منهما يعامل الآخر كجزء هش من قلبه، يُخاف عليه حتى من النسيم العابر.

وبعد أن أنهكهما التعب من المشي قررا أن يعودا كلٌ إلى شقته ليستريحا قليلاً، إلا أنها كانت متعبة وتتوقف بعد كل مسافة قصيرة، فما كان من مجاهد إلى أن حملها على ظهره ومشي بها وسط ضحكاتها التي كانت تطلب منه إنزالها خوفًا عليه من التعب.

فرد قائلاً:

- أي تعب هذا؟ فالعشاق لا يحملون أحبّتهم بأذرعهم بأعضائهم بل بقلوبهم...تلك القلوب التي لا تُرهق ولا تتعب إن سكنها من نحب.

بعد مسافة ليست بقصيرة قام مجاهد بإنزالها، ومشت معه حتى وصلا إلى المبنى الذي يقطنان فيه.

دخل كل منهما شقته وكان فرحًا لأنه سيقوم بإخبار عائلته عن نيته الارتباط بها، حمل جواله واتصل بوالدته التي لم تكن مسرورة برغبته ارتباطه بجاكلين لكنها لم تبدِ رأيها في الأمر، وطلبت منه أن يتحدث مع والده.

وفي نهاية اليوم قرر أن يتصل بوالده وأبلغه بقراره بالارتباط بجاكلين.

لم يصدق والده ما سمعه منه، وذكره بابنة عمه التي خطبها له منذ أن كانا صغيرين.

تفاجئ من كلماته ورد مجاهد على والده بالقول:

- قال مجاهد بصوت هادئ لكنه ممتزج بشيء من الألم:

– يا أبي، هذا مجرد كلام كان يقال في الماضي بين الأهل، فهو من المفترض أنه مجرد مزحه، وأنا كنت طفل حينها ولم تقول لي ذلك من قبل أو تستشرني وتسألني عن رأيي..

ردّ والده بنبرة جافة:

– ومنذ متي ونحن نستشير أبناءنا في مثل هذه الأمور؟ يبدو أنك نسيت عاداتنا وتقاليدنا، ونسيت أن من شيمنا الوفاء بالوعود.

لم يرق الكلام لمجاهد، فتمسك بصوته بثبات وقال:

– لكني أحبها يا أبي، وأريد أن أرتبط بها، فهي من اختارها قلبي وعقلي.

فجاءه الرد بصوت والده الخشن، قاطعًا كالسيف:

– قلت ما عندي. لا زواج لك إلا من ابنة عمك، تلك التي تنتظرك منذ أن كانت طفلة.

دار بينهما جدال مرير امتدّ لدقائق كل كلمة فيه كانت كأنها حجر يسقط في قلب مجاهد، وفي النهاية قال له والده بلهجة قاطعة لا تحتمل التفاوض:

– إن لم تفِ بوعدي وترتبط بابنة عمك فانسي أنك ابني، لن أكلّمك ما دمتُ حيًّا.

ثم أغلق الخط في وجهه، تاركًا وراءه صمتًا ثقيلًا.

جلس مجاهد شاردًا يتخبّط بين قلبه الذي مال لمن أحب وضميره الذي يعذّبه خشية عقوق والده، وبين وعدٍ قديم لا ذنب له فيه لكنه يُفرض عليه كقدرٍ لا مهرب منه.

كان حائرًا بين ما يهوى وما لا يحتمل عواقبه.

مرت ليالٍ وأيام ومجاهد يفكر بحل لمشكلته، كان يبدو عليه الهم إلا أنه لم يبين ذلك لجاكلين، فبدأتْ صحته تتدهور وابتسامته تتقلص خائفًا معظم الوقت مما قد يأتي بعد ذلك.

بدأ يتهرب من مواعدة جاكلين ليس لأنه يريد أن يتركها، وإنما لأنه لا يريد أن يجرحها ويحسسها بما هو به. وبعد ثالث اعتذار من مجاهد الذي تمثل بتمنعه عن مرافقتها للذهاب إلى السوق والتجوال في المدينة أحست أن الأمور لا تسري على خير ما يرام.

سألته عن السبب وما إذا كان هناك شيءٌ يخفيه عنها...

أنكر مجاهد وجود سبب ما وراح يتذرع بأنه متعب ويريد أن يحضر نفسه لمدرسة اللغة.
وما أن عرضت عليه أن تساعده ورفض حتى أجهشت في البكاء..

**********

# الفصل الثالث

# للقدر كلمته

يبدو أن كل شيء يتغير في لحظة، فصوتها الهادئ بدأ يعلوا وهي تصرخ في وجه..

.. أنت تكذب عليّ، لا أعلم ما الذي غير حالك.

أمام دموعها لم يستطع أن يصمد فأقترب منها وأخبرها بما يخفيه عنها:

- إنه من عاداتنا وتقاليدنا أن يتم خطبه البنت لابن عمها وهم صغار ودون مشورة الابن أو الابنة، وإن والده قد خطب له ابنة عمه من دون أن يأخذ رأيه أو حتى رأيها في الموضوع، وعندما قام بإعلامه برغبته في الزواج منها خيره بينها وبينه..

هنا سألته جاكلين وقالت:

- ماذا عنك؟ من ستختار حبك أم أهلك؟

صمت مجاهد قليلاً وقال لها:

- لا أعلم، ولكنني أنا من سيخسر في النهاية.

ردت جاكلين سائلةً:

- ماذا ستخسر؟

فرد..

- سأخسر أحدكما، إما أنت أو عائلتي.

هزت جاكلين رأسها وقالت:

- إذًا أنت مستعد للتخلي عني فقط من أجل تفاهات تسمونها عادات وتقاليد.

فقال لها:

- لكل مجتمع طبيعته وقوانينه الخاصة التي نشأ عليها، فما نراه نحن من عادات وتقاليد في معيشتنا قد تعتبرونه أنتم تفاهات بلا قيمة، وما يحكمكم من عادات وتقاليد قد لا نقبل بتطبيقه في مجتمعاتنا. هذه عادات توارثناها عن أجدادنا وتربى عليها آباؤنا، فهي ليست تفاهات بلا قيمة كما يظن بعضكم. منها ما هو سيء نعم، لكن بالطبع هنالك ما هو قيّم أيضًا... فهناك قيم نبيلة وحميدة غرست بنا كالكرم، والمروءة، والمودة، والرحمة، وحماية المستضعف المستجير بنا.

ردت عليه:

- هل زواجكَ بمن تحب حرام؟

رد مجاهد قائلاً:

- بالطبع لا، ولكن أيضًا إنّ ديننا يطلب منا أن نَفِي بالعهود والوعود. صمتت للحظات حينها امتلأت عيناها بالدموع وبهت لون وجهها حتى بدا شاحبًا كأن الحياة انسحبت منه.

لكنها حاولت أن تتماسك أمامه، تماسكت بكل ما بقي فيها من كبرياء ثم استدارت وغادرت دون أن تنطق أي كلمة ودون حتى أن تودّعه.

راح مجاهد يفكر مليًا بحلٍ لمشكلته فاتصل بوالدته يشكو لها حاله، فراحت والدته هي الأخرى تبكي وتقول له:

- إن والدك لن يسمعك صوته طالما أنت ماض فيما أنت فيه.

أغلق سماعة الهاتف وكان قلبه ينزف، فهو حائرٌ بين وعده لجاكلين وبين وعد والده لأخيه بأن مجاهد سيكون لابنته.

مرت أيامٍ وليال على مجاهد وجفنه لا يعرف النوم، وكل ما يفعله هو أن يجلس على أريكته يفكر بما هو به أو يمشي في طرقات باريس كالمجنون يتذكر حبيبته فكان يسير في نفس الشوارع فهو أشتاق إليها.. وفي إحدى الليالي وأثناء تمشيه في شوارع باريس التقى صدفةً بمعتز، وبعد أن تبادلا التحية دعاه معتز لأن يصعد معه إلى شقته ليمضيا سهرتهما سويًا، تردد مجاهد في البداية إلا أنه وبسبب إصراره صعد معه إلى شقته. وبعد أن قدم له كوبًا من الشاي، وسأله عن أوضاعه وأسباب انقطاعه عنه في الفترة السابقة. أخبره بما حدث معه وأنه يعيش حالة من الضياع والحزن.

كان معتز يبدي لمجاهد تأثره وحزنه عليه إلا أنه كان داخليًا مسرورًا لحزنه. كُثُرٌ هم من يظهرون لنا أنهم ملائكة، ولكن داخلهم يطفحُ سمًا.

طرأ في بال معتز فكرة للانتقام منه، وكانت فكرته أن يقدم له سيجارة حشيش وهو يعلم أنه لا يتعاطاها، فقدم له سيجارة بعد أن لفها له في مطبخه وقال له:

- دخنها وسوف تهدأ من روعك قليلاً.

سأله عمّا تحتويه هذه السيجارة، فأخبره أنها سيجارة عادية كتلك التي نلفها في بلدنا.

بدأ مجاهد يدخن السيجارة التي قدمها له، وما إن بدأ مفعولها يسري في جسده حتى راح يضحك وحده وكأن شخصًا يدغدغه، وطلب منه سيجارةً أخرى فلم يتكاسل معتز عن تقديمها له بابتسامة تخفي وراءها حقد سنين على مجاهد. بعد عدة سجائر قام مجاهد بتدخينها راح يصرخ بصوت جنوني، ما دفع معتز أن طلب منه مغادرة شقته لكيلا يقوم بإزعاج الجيران. غادر مجاهد الشقة وهو في حالةٍ يرثى لها، فنزل إلى الشارع يسير وحده ويتبعه معتز من بعيد، وما إن تذكر مجاهد جاكلين وحبه لها حتى شرع يصرخ بصوتٍ

عال ترافق مع تكسيره للسيارات المركونة على جانب الطريق وإزالة الأحجار من مكانها في الرصيف ورمي الطوب على زجاج محطات باصات النقل العام.

بعد أن رأى أحد المارة ما يقوم به من تكسير وصراخ قام بالاتصال بالشرطة التي حضرت على الفور وألقت القبض عليه ووضعته في سيارتها. قام الشرطي بكتابة ما سمعه من المارة في محضر وطلب من معتز أن يشهد بما رآه.

مكر معتز وأخبر الشرطة بأن مجاهد كان يحمل جسمًا حديدًا ويكسر به واجهات السيارات وهو يصرخ "الله أكبر".

ما إن انتهى معتز من حديثه، حتى سارع الشرطي بالاتصال بفريقه الأمني طالبًا تعزيزات فورية وقد ارتسم الخوف على ملامحه بعد أن اقتنع بأن مجاهد قد يكون إرهابيًا.

لم تمضِ دقائق حتى وصلت وحدة دعم إضافية من جهاز الشرطة، حيث تم توقيف مجاهد ونقله إلى أقرب نقطة أمنية وسط حالة من الترقب والتوتر.

غادر معتز المكان بعد أن دوّن عنوانه في سجلات الشرطة وملامحه لا تزال مشدودة بالخوف والتوتر والقلق..

لكن حينما ابتعد عن المكان، حتى ارتسمت على وجهه ابتسامة خبيثة، وانفجر ضاحكًا في هدوء، كان سعيدًا بما حدث فكل ما جرى كان يتمناه ويرغب في حدوثه..

وفي القسم كان مجاهد لا يزال تحت تأثير الحشيش، فأصبح يصرخ بصورة هستيرية ويضرب بيديه على القضبان، فطلب منه عناصر الشرطة أن يتوقف عن ذلك، فلم يفعل.

تولّت العناصر المختصّة بمكافحة الإرهاب التعامل مع الموقف على الفور، وقامت بعزله في غرفةٍ لوحده وبالاعتداء عليه وضربه ضربًا مُبرِّحًا حتى توقف عن أفعاله.

طلب المحقق إجراء الفحوص المخبرية اللازمة له، وبعد إجراء كافة الفحوص اللازمة. أظهرت هذه الأخيرة أنه تناول جرعات كبيرة من المخدر الحشيش فتمهل المحقق في استجوابه لحين أن يكون قادرًا على الإدلاء بأقواله.

أمضى ليلته في سجن المخفر، وكان لا يزال تحت تأثير الحشيش، فكان تارة يضحك بطريقة هستيرية دون سبب، وطورًا يقوم بالضرب على القضبان الحديدية للزنزانة محدثًا صوتًا مزعجًا لسجانيه الذي كانوا يأتون على الفور ليصرخوا فيه أو يضربوه كي يتوقف عمّا يحدثه من إزعاج.

في اليوم التالي لاحظ المحقق أنه قد هدأ وأنه يمكنه استجوابه، فاستدعاه وقد لاحظ أنه لا يتحدث الفرنسية بتاتًا، فقام بتأجيل موعد استجوابه لحين حضور مترجم ليقوم بترجمة ما قد يدلي به مجاهد من أقوال.

نسق المحقق عبر مساعديه مع أحد المترجمين ليقوم بالحضور مع مجاهد، وما إن تم التنسيق وحضر المترجم حتى قام المحقق باستجوابه وكان لا يتذكر شيئًا مما حدث.

وأثناء استجوابه سأله المحقق إذا ما كان قد صرخ بـ "الله أكبر" أثناء تكسير السيارات المركونة على جانب الطريق والاعتداء على الممتلكات العامة، فنفى مجاهد ذلك.

رد عليه المحقق قائلاً:

- كيف لك أن تنفي ما هو موجه إليك وأنت تدّعي أنك لا تتذكر شيئًا مما حدث؟

بعد نهاية الاستجواب قرر المدعي العام تحريك دعوى ضده بتهمة الإرهاب وقرر نقله إلى سجن الانتظار.

حضرت سيارات الشرطة وفيها المخولين بالتعامل مع الإرهابين، وقاموا بوضع الأصفاد بيدي مجاهد مرةً أخرى ووضع قطعة من القماش حول عينيه، لكيلا يرى شيئًا مما يدور حوله ولا أن يقوم بالتعرف على رجال الأمن الذين عُهد لهم بهذه المهمة.

تم نقل مجاهد إلى سجن الانتظار، ووضع في زنزانة من الزنزانات المخصصة للمشتبه بهم في قضايا الإرهاب.

كانت تلك الزنزانة تقبع في أعماق القبو، منعزلة عن كل صوت وكل ضوء، مساحتها لا تتجاوز مترين بمتر، كأنها قبرٌ مفتوح لا تختلف عن القبور في شيء.

لا نافذة فيها، ولا خيط نور يتسلل إليها، كل ما تحتويه هو سرير إسمنتي تعلوه مرتبة رقيقة من الإسفنج ووسادة قاسية لا تختلف كثيرًا عن حجر.

دُفع مجاهد إلى الداخل بالقوة وسط صمت ثقيل يخترقه صرير المفاتيح

سلّمه أحد رجال الأمن مفاتيح الأصفاد ببرود وأمره بفكّها بنفسه، كأنهم أرادوا أن يشارك في قيده كما سيشارك في عذابه.

بعد محاولات عديدة تمكن مجاهد من تحرير نفسه من الأصفاد، ثم قام بنزع قطعة القماش الملفوفة على وجهه.

لم يكن الأمر مختلفًا بالنسبة له بعد نزع قطعة القماش عن وجهه، فهو لا يرى شيئًا، وكأن قطعة القماش ما زالت تغطي عينيه، راح يتحسس الأشياء فيتخبط شمالاً ويمينًا مرة بالجدران واخري بالسرير الإسمنتي.

تمدد مجاهد على سريره الإسمنتي وبدأ يفكر في الجريمة التي ارتكبها ليتم وضعه في هذه الزنزانة، أفكار تأخذه هنا وهناك، ولكن جاكلين لم تكن تغيب عن باله، فكان يفكر بما قد تكون تفكر به.

راح يفكر بينه وبين نفسه من أن جاكلين قد تعتبر غيابه عنها ما هو إلا إرادته بالهروب منها، والتخلي عنها، وعن حبها، وتنفيذ كلام والده الذي طلب منه قطع علاقته بها وارتباطه بابنة عمه.

كان خائفًا من ردة فعلها، وما إن هدأ قليلاً حتى راح يصرخ ويحاول أن يتحدث مع سجانه.

وما إن سمع سجانه صراخه حتى أتى إليه يتحدث معه من وراء الباب، لكن سجانه لم يفهم منه ماذا يريد. فمجاهد لا يتقن اللغة الفرنسية والسجان لا يتقن اللغة الانجليزية. كان الموضوع أشبه بمزحة وكأن الإثنين خرس... فيعد أبكمَ كل من لا يتحدث لغة المجتمع الذي يقطن فيه.

في هذه الأثناء، كانت جاكلين في شقتها لا تبرح سريرها جالسة فيه تفكر في حبيبها الذي لا تعرف عنه شيئًا منذ أيام.

كانت حالة جاكلين النفسية سيئة للغاية لا تأكل، لا تنام ولا تبرح مكانها وكأنها هي الأخرى في سجن حدوده سريرها.

مرت أيام أخرى وكل شيء كما هو مجاهد في زنزانته وجاكلين في سريرها. وفي كل مرة تحن فيها جاكلين إليه، وتعزم الذهاب إلى شقته يمنعها كبرياؤها وعزة نفسها عن ذلك، فتبقى في سريرها تنتظر ما قد يحدث بعد ذلك. كانت تؤمن بالفلسفة الراسخة لديها التي تقول: "إن كل الأشياء أمام الكرامة هي أمور ثانوية تافهة، فالحب، الصداقة، وأية روابط أخرى تسقط كلها أمام كرامة الإنسان".

راحت تردد في أعماقها:

"ليذهب الحب إلى الجحيم إذا ما كان فيه ثمنه إهان كرامتي، فكرامة الإنسان ليست ترفًا، بل هي الركن الرئيس لحق الإنسان في الحياة، ولا يتصور وجود حياة لإنسان إذا لم تُعاش بكرامة".

وأثناء جلوسها في سريرها وتفكريها العميق في مجاهد قرع جرس شقتها، فركضت كالمجنونة نحو الباب ظنًا منها أن حنين مجاهد أتى به ليطرق بابها إلا أن أملها قد خاب عندما سمعت صوت العمة ماري.

فتحت باب شقتها وإذ بالعمة ماري واقفة أمام الباب تنتظر للدخول، فدعتها جاكلين للدخول.

ومع أول سؤال من العمة ماري لجاكلين عن سبب غيابها راحت تبكي بكاء الأطفال وارتمت في حضن العمة ماري التي حزنت لما رأته.

كانت حالة جاكلين يرثى لها شعرها منكوش وملابسها غير منسقة ملامحها شاحبة، مشهد لم تألفه ماري يومًا.

فجاكلين كانت بالنسبة لها دائمًا رمزًا للأناقة الفرنسية، حتى في أبسط تفاصيلها حتى في ملابس المنزل.

راود ماري القلق، وسألتها بتوجس:

– ما الذي جرى لكِ يا جاكلين؟ ما الذي أوصلكِ إلى هذا الحال؟

لم تجب جاكلين واكتفت بالصمت لكن ماري أعادت سؤالها بإلحاح وشيء من الرجاء في عينيها.

عندها تمتمت جاكلين بصوت مكسور لكنه عذب:

– طائرٌ جميلٌ حطّ على قلبي يومًا، شعرتُ بنبض جناحيه داخلي، لكنه رحل.

**رحل هو وبقيت بصماته تلامس قلبي في كل نبضة..**

**قالت لها ماري:**

**- أتقصدين مجاهد؟**

**ردت جاكلين وقالت:**

**- نعم، لقد رحل ولا أعلم عنه شيئًا.**

**طلبت منها العمة ماري أن تهدأ لكي تستطيع أن تفهم منها ماذا حدث. ثم نظرت إليها وقالت لها:**

**- ادخلي اغسلي وجهك حال ما أعود.**

**سألتها جاكلين وقالت:**

**- إلى أين أنت ذاهبة؟**

**قالت ماري:**

**- سأعود حالاً.**

**دخلت جاكلين تغسل وجهها في حين أن العمة ماري توجهت إلى شقته. ضغطت على جرس باب الشقة فلم يفتح لها أحد، ثم طرقت الباب، ولكن دون جدوى فمجاهد ليس في الداخل.**

**عادت العمة ماري إلى شقة جاكلين وكانت هي في هذا الوقت قد غسلت وجهها وبدلت ملابسها.**

**سألتها جاكلين:**

**- أين كنت؟**

أخبرتها ماري أنها ذهبت إلى شقة مجاهد لتتفقده ولكنه لم يكن متواجدًا في شقته.

فردت عليها:

- قد يكون قد ترك المبنى بأكمله.

سألتها ماري حينها عن السبب الذي قد يدفعه لفعل ذلك، عندئذٍ أخبرتها جاكلين بالأحداث التي جرت بينهما وأنه قد يكون قد امتثل لرغبة والده بأن يقطع علاقته بها وأن يتزوج ابنة عمه.

نظرت إليها ماري وقالت لها:

- لا أعتقد ذلك يا ابنتي، فهو وإن كان عربيًا إلا أنه مختلف كثيرًا عن العرب الذي رأيناهم هنا، فهو لبق، محترم، خجول وصادق ولا أعتقد أن يكون بهذا الضعف ويرحل بهذه الطريقة دون عذر. إن فيه من الشجاعة التي تجعله يواجهك ويواجه أهله أيضًا، فلا أتوقع منه أن يتصرف بهذه الطريقة، فالجبناء وحدهم هم من يرحلون دون أن يواجهوا مشاكلهم.

صمتت العمة ماري وقالت لجاكلين:

- يا ابنتي أود أن أسألك سؤالاً؛ هو تدخل في حياتك الشخصية لكن أود منك أن تجاوبيني عنه لكي أستطيع أن أفكر معك.

قالت لها جاكلين:

- تفضلي، اسألي ما شئتِ.

فسألتها العمة ماري إذا ما كان مجاهد قد لمسها، فردت وقالت:

- بالطبع لا، فهو حتى لم يقم بتقبيلي، بل أكثر من ذلك أن يده كانت ترتجف إذا ما قام بالإمساك بيدي.

عندئذٍ قالت لها ماري:

- لماذا إذًا سيهرب؟ هو بالطبع لم يهرب، وإنما قد يكون قد ذهب إلى أحد أصدقائه وبقي هناك معه.

هزت جاكلين رأسها وقالت:

- نعم، قد يكون ذلك جائزًا.

راحت ماري تتبادل الأحاديث مع جاكلين وتطمئنها أن مجاهد لن يتخلى عنها ولن يخسر في نفس الوقت أهله، فدائما هناك بصيص أمل في كل شيء. فالأيام كفيلةٌ بتبديل الأشياء وتغييرها، فلا شيء يبقى على حاله للأبد؛ فالحزن لا يدوم، والفرح لا يخلد، الصحة لا تستمر، والمرض لا يظل كما هو، والفقير قد يغتني، والغني قد يخسر غناه، وحتى القلوب المتحجرة قد تلين بمرور الزمن.
هذه الحياة مسألة وقت، ففي أي لحظة قد تنقلب الموازين ويتبدل حزننا فرحًا. وأطردت:

- لا تستهلكي وقتك كثيرًا بالتفكير يا ابنتي، ولا تسجني نفسك في قفص من الحزن والكآبة، فأنت مسؤولة أمام نفسك عن كل لحظة مرّت من عمرك دون أن تمنحيها حق السعادة... لا الحزن يعيد الغائب ولا الفرح يعيق عودته... لذا يجدربنا دائمًا أن نفرح، حتى ولو كان داخلنا يتمزق. فلملمة الجراح يعقبها الحزن ويطيبها الفرح. اجمعي جراحك داخلك ولا تبرزيها لا للغير ولا للحياة، فالجروح المكشوفة لا تطيب؛ بل تلتهب... انهضي من حزنك وأكملي حياتك، فمجاهد سيعود بإذن الله، والحال سيتبدل.

سُرت جاكلين بما سمعته من العمة ماري، وبالفعل قامت، واغتسلتْ وبدلت ثيابها، وأخذت العمة ماري بيدها وذهبتا لتناول القهوة في أحد المقاهي الموجودة في باريس والتي تحب أن تذهب إليها..

وفي الطريق كانت جاكلين تحدث العمة ماري عن مجاهد:

- هنا قال لي كذا، وهنا شد على يدي، وهنا ركضنا سويًا تحت المطر، وهنا كتب لي أحبكِ، وهنا أوقفني لنتأمل هذا المبنى سويًا، وما إن انتهت من قول عباراتها حتى أجهشت بالبكاء، فحضنتها ماري وقالت لها:

- لا بأس، ابكي، فما البكاء إلا تطهير للروح وتفريغٌ لما في القلب من مشاعر سلبية وحزينة. لكن سأقول لكِ شيئًا يا ابنتي؛ قد تكون الذكريات رغم كل ما فيها من ألم أجمل من الواقع الذي عشناه، فالواقع لا يمكن استرجاعه أو إعادته، ولكن الذكريات يمكن استرجاعها وإعادتها ساعة نشاء.

نظرت إليها جاكلين وهي تقول

- ما نفع الذكريات إذا كان منقوصة، منقوصة من صاحبها؟

اجابتها ماري:

- دائمًا هناك الأمل بمستقبل أفضل، فقد يكون القادم خير وأجمل من كل ما مضى. يأخذ الإنسان دائمًا من الذكريات ما هو جميل لكي يستطيع أن يكمل حياته بسعادة، وإلا دفن نفسه مع أول حادث مؤلم تعرض له. في هذه الأثناء..

كان مجاهد ما يزال ماكثًا في زنزانته يفكر في حبيبته التي لم تغيب عن باله، فهو مشتاق إليها يفكر فيما تفعله في غيابه هل تبحث عنه أم ظنت أنه تخلي عنها؟

ها هو قد أحس بغربته مرة أخرى بعد أن اتخذ من حبها وطنًا له.

كان يحدث نفسه فلا يوجد من يتكلم معه ليحكي ما يشعر به، كان ينظر لكل شيء كأنه شخص سيستمع إليه..

ها قد أصبحت غربتي غربتين..

غربة عن وطنٍ صغير تحده جغرافيا مصطنعة، وغربة عن وطنٍ كبير حدوده ذراعيك.

وإذا كانت غربتي الأولى قرار إتخذته نابع من إختياري، فغربتي الثانية قدر فرض عليّ لا مفر منه..

قدر لا أعلم إذا كان لي ذنب به أم لا، ولكنني على يقين أنني لم أطمح إليه، وسأسعى لتغييره بتغيير نفسي ودعائي لربي.

سمع في تلك اللحظة خطوات السجان تقترب منه، فكان الخوف في داخله يثار أكثر وأكثر كلما أحس باقتراب السجان من باب زنزانته.

صرخ به السجان فلم يفهم مجاهد مقصده، حتى لمح طبقًا دفع نحوه من الفتحة الصغيرة في باب الزنزانة.

وبدافع تناول مجاهد الطعام دون أن يعرف مكوناته. وبعد انتهائه،أعاد الطبق ووضعه أمام فتحة الباب.

وما إن حضر السجان لأخذ الطبق مرة أخرى حتى بدأ مجاهد يصرخ بشدة ويطالب بإخراجه من هذا القبرالمظلم، ما دفع بالسجان لإبلاغ رؤسائه: " أن هناك مسجونًا يصرخ دائمًا محاولاً التحدث معه إلا أنه لم يفهم عليه شيئًا مما يود قوله".

وفي نفس اللحظة..

كانت جاكلين ما تزال في الخارج تتمشى مع العمة ماري وتحاول العمة إخراجها من السجن الذي سجنت نفسها فيه، سجن اتخذ الحزن وكل الأفكار السلبية محوره. كانت معظم الوقت صامتة لا تتحدث إلا قليلاً، تستمع في معظم الأحيان ولا تقتنع بما تقوله العمة ماري.

كان هذا شيئًا طبيعيًا، الحزن في الغالب يُغيب العقل ويحل مكانه مشاعر سلبية لا تتقبل حتى الحديث عن الأمل.

كانت العمة ماري بما تملكه من خبرة في الحياة عالمةً بذلك؛ إلا أنها كانت لا تمل من المحاولة وسط محاولات جاكلين الكثيرة لإسكاتها عبر صمتها وعدم تفاعلها مع كل المواضيع التي تناقشها ماري.

وبعد فترة قصيرة، طلبت جاكلين من ماري العودة إلى شقتها متحججة بأنها متعبة وتود أن تنام لتستريح، فهمت أنها تود الهروب، الهروب من الحياة الجميلة التي تحاول العمة ماري رسمها لها إلى الواقع المؤلم الذي خلفه رحيل مجاهد عنها.

لم تناقشها العمه في طلبها، فأخذتها بيدها ولم تفارقها حتى أوصلتها إلى باب شقتها.

عادت جاكلين إلى سجنها، وما أصعب أن يقوم شخص بسجن نفسه داخل مكان وأحداث وأفكار معينة لا يخرج منها حتى للضرورة.

كثير منا من يقوم بسجن نفسه داخل أفكار سيطرت عليه ولا يستطيع أن يتحرر منها إلا إذا ألغاها هو بنفسه من نفسه وعقله وأحل مكانها أفكارًا أخرى. ليس سهلاً أن يكون الإنسان نفسه السجان والمسجون في نفس الوقت، شيء مرهق للقلب والعقل قبل الجسد.

وما إن أعادت نفسها إلى سجنها حتى بدأت حالتها الصحية تتدهور يومًا بعد يومًا، وجهها كان شاحبًا وكأنه طلي بحبات فحم، ووزنها ينقص بطريقة جنونية.

كانت الأيام تمر ببطء شديد ولا يتغير شيء، فمجاهد في سجنه خلف القضبان وجاكلين في سجن أفكارها وحزنها.

وفي أحد الأيام، قامت العمة ماري بتفقد جاكلين فقرعت جرس بابها لكن في هذه المرة لم تفتح لها، فدخل الخوف قلبها.

عادت إلى شقتها وأصبحت هي الأخرى تفكر في حالة جاكلين فتخوفت أن يكون قد حدث لها مكروه.

في اليوم التالي لهذه الحادثة، عادت العمة ماري إلى شقة جاكلين وقرعت الجرس، لكنها لم تتلقَّ أي جواب. ثم طرقت الباب فكانت نفس النتيجة، خافت كثيرًا واستمرت في طرق الباب وسط حضور أحد الجيران الذي سألها عما يحدث. أخبرته ماري بسوء حالة جاكلين وأنها قلقة ومتخوفة أن يكون قد حدث لها مكروه أو أن تكون قد أقدمت على إيذاء نفسها بفعل تدهور حالتها الصحية. سارع الجار بالاتصال بالشرطة التي وصلت على الفور وقامت بكسر الباب. دخلوا الشقة وإذا بجاكلين فاقدة للوعي، فانهارت ماري وبدأت بالبكاء كطفلة صغيرة انتزعت منها لعبتها.

قامت الأجهزة الطبية بحضور الشرطة بتقديم الإسعافات الأولية لجاكلين وتم نقلها إلى مشفى قريب من محل سكنها.

تبعتها العمة إلى المشفى، وتحدثت مع الطبيب المناوب المسؤول عن حالتها. أخبرها الطبيب أنها تعاني من نقص في التغذية، ثم أردف قائلاً:

- يبدو أنها لم تأكل منذ أيام، وها نحن قمنا بوضع الغذاء لها في السائل، لذلك اطمئني ستكون بخير.

جلست العمة بجانبها فترة قصيرة وهي تدعو لها في صدرها أن تنهض من محنتها.

غادرت المشفى، وتوجهت إلى قسم الشرطة وطلبت منهم الإذن بأن تفتح هاتف جاكلين لتقوم بالاتصال بوالديها وإخبارهما بحالتها، أعلمها الشرطي المناوب أنه لا يوجد داع لذلك لأنهم قاموا فعلاً بالاتصال بهما بعد نقلها إلى المشفى مباشرة وأخبرنا والدها أنه لن يتأخر في المجيء.

اطمأنت العمة ماري قليلاً لهذا الخبر فجاكلين بالنسبة لها لا يجب أن تترك وحدها خصوصًا في هذه الظروف.

غادرت العمة قسم الشرطة، وتوجهت إلى شقتها لتستريح قليلاً وتتناول القليل من الطعام.

وفي غضون ساعتين، عادت وارتدت ملابسها، وقامت بالتوجه إلى السوق فاشترت بعض الملابس لجاكلين، وحملت في يديها بعض الفواكه والحلوى ومضت في طريقها نحو المشفى قاصدة غرفتها.

وما إن دخلت الغرفة حتى رأت والديها، فتعرف والد جاكلين عليها مباشرة فقال لها:

- بالطبع أنت العمة ماري..

ردت وقالت:

- نعم أنا هي، لكن كيف عرفت ذلك؟

رد عليها قائلاً: كانت جاكلين لا تمل من الحديث عنك وعن حنانك عليها وهي هنا في باريس بعيدًا عنا، حتى أنها كانت تنعتك بجدتها.

بكت ماري عندما سمعت ذلك وقالت:

.. بل هي ابنتي التي لم أنجبها، كانت بالنسبة لي أقرب إليّ من كل أقربائي الذين لا يأتون إلى زيارتي إلا صدفة، كانت تقضي لي حاجاتي دون أن أطلب منها، تصحبني لاحتساء القهوة ولا تقول لي إلا كلامًا يطيب القلب، نعم هي ابنتي... الأبناء ليس هم فقط من نلدهم، الأبناء الحقيقيون هم الذين يرعوننا عندما نكبر، يسألون عنا، يحزنهم ما يحزننا ويفرحهم ما يفرحنا بغض النظر عمّا إذا كانوا من رحمنا أو من رحم غيرنا. ما فائدة أن ننجب من دون أن نقطف ثمار ما أنجبناه؟
ما فائدة أن يكون لنا أقارب ولا نحظى بحنانهم وحبهم لنا؟ ما فائدة أن نكون متزوجين ولا نلقى من نلجأ إليه وقت حزننا؟

ما الفائدة إذا كنا نمتلك أصدقاء بالعشرات ولا نكحل أعيننا برؤيتهم بين الحين والآخر؟ كل هؤلاء ما الفائدة من وجودهم المادي إذا لم يكونوا معنا عندما نحتاجهم ليساعدونا على مصاعب الحياة ولنبكي في أحضانهم. ما يجعلنا ننظر إلى الحياة نظرةً سوداوية ليس مصاعبها ومتاعبها؛ وإنما خلوها من أشخاص يواجهونها معنا.

هي ليست سهلةً نعم، ولكنها تصبح بغاية البساطة إذا ما كان هناك الكتف الذي نستند عليه والقلب الذي يشعر معنا ويواجه ما نواجه.

مواجهة الحياة هي مسؤولية مشتركة بين البشر أجمعين، ويختلف أطراف هذه المواجهة بحسب المشكلة التي نعاني منها، فالمشاكل الزوجية أطرافها الزوجين، والمشاكل الحياتية العامة أطرافها الناس عامةً، والمشاكل العائلية أطرافها أفراد العائلة سواء كانت صغيرة أو كبيرة... كل هذه المشاكل والمتاعب

لا يستطيع الإنسان أن يجتازها وحده، فلا بد له من معين يعينه عليها وإلا أصبح الإنسان وحيدًا، حتى لو عاش وسط جمع من الناس. الصداقة، الحب، الحياة الزوجية، بل والمواطنة هي علاقات تحمل في طياتها ما هو حلو وما هو مُر، ووجود الناس بجانب بعضهم البعض ليس فقط أوقات الفرح وإنما أوقات الحاجة، وأوقات الحاجة تكون في الغالب في أوقات الحزن والشدة أكثر منها من أوقات الفرح.

نظر والد جاكلين إلى زوجته ثم نظر إلى العمة ماري وقال لها:

- كنتِ محقة في كل كلمةٍ تفضلتِ بها.

في هذا الأثناء، كان الطبيب المناوب قد حضر..

فسأله والد جاكلين عن حالتها.

فأجابه:

- ستكون بخير فوضعها مطمئن، لكن الظاهر أنها قد أرهقت نفسها في الفترة السابقة ولم تحصل على الغذاء والنوم الكافيين.

سأل والد جاكلين العمة ماري إذا ما كانت تعرف السبب في تدهور حالتها الصحية فنفت معرفتها السبب.

سكت والد جاكلين قليلاً ثم سأل عن مجاهد، فردت العمة ماري بأنه ليس في باريس، فقد يكون قد ذهب لزيارة معارفه.

تنهد والد جاكلين قليلاً لكن والدتها راحت تتمتم وتقول:

- أنا واثقة أنه السبب في تدهور حالتها الصحية.

لم يكن كلامها بالنسبة للعمة مقبولاً فردت عليها وقالت:

- ما ذنب مجاهد في هذا؟ وكيف جزمتِ بأنه السبب من دون تحققك من ذلك؟

ردت والدة جاكلين بالقول:

- إن غيابه يؤكد ذلك.

هزت العمة ماري رأسها وقالت لها:

- أنت لا تعرفين مجاهد، فهو لو على علم بحالتها لكان قد حضر في الحال.

ثم أكملت قائلةً: دعي ذلك الشاب في حاله، فهو خير مثال للأمانة والصدق والمحبة، كما أننا لا يمكننا الحكم على الأشخاص في غيابهم، فعلينا أن ننتظر قدومهم لنعرف منهم سبب غيابهم.

بعد وقت قليل، طلب منهم الطبيب أن يغادروا الغرفة لكي تستطيع جاكلين أن تستريح.

قام والد جاكلين ووالدتها بتوصيل العمة ماري إلى شقتها ودخلا هما إلى شقة جاكلين ليمضيا ليلتهما فيها.

في هذا الأثناء..

كان مجاهد يشعر وكأن روحه تقبض وأحس بما يحدث لجاكلين..

فالأحلام أصبحت تطارده حلم وراء حلم وفي كل أحلامه تطلب جاكلين حضوره.

في اليوم التالي، أحس بمغص شديد وكأنَّ معدته كانت تتقطع، فراح يصرخ بطريقةٍ جنونية حتى سمع صوته السجان الذي استهجن من أن صوتًا خافتًا سمعه بدا وكأنه أنين، ففتح فتحة الباب وأضاء بمصباحه على مجاهد فلاحظ أنه يصرخ في سريره وليس من وراء باب الزنزانة كعادته.

أبلغ السجان مسؤوليه مباشرةً فحضر المسؤول عن الطابق المسجون فيه مجاهد، وما إن فتحا زنزانته حتى رأياه ممددًا على سريره الإسمنتي ويصرخ بصوت مكتوم واضعًا يده على بطنه.

سأله مسؤول السجن عمّا به فغمغم بكلمات غير مفهومة لم يستطع مسؤول السجن ومن معه أن يفهم منها شيئًا، فأمر أحد الحراس بإحضار المترجم حسن، المترجم المعتمد في السجن لمساعدة الموظفين في شؤون المساجين العرب.

كان المترجم حسن رجلاً في الخمسينات من عمره، من أصول عراقية شرب من ماء النهرين، ذكي جدًا ومتمرس في مهنة الترجمة ويتقن أكثر من لغة بالإضافة إلى العربية والفرنسية.

كان رجلاً معروفًا عنه النزاهة ومحبوبًا من الجميع سواء الموظفين في السجن أو حتى السجناء.

حضر المترجم حسن وسأل مجاهد عما يريده، فأخبره أنه يعاني من ألم شديد في بطنه، كما لو كانت خناجر تقطع معدته.

قام المترجم بترجمة ما قاله له للمختصين في السجن، الأمر الذي دفعهم إلى سؤاله عمّا إذا كان قد فعل بنفسه شيئًا، ولكنه نفى أن يكون قد أقدم على فعل أي شيء في نفسه، فقام حسن بترجمة ما قاله للمختصين فسارع المختصون إلى الاتصال بطبيب السجن الذي اقترح على الفور نقله إلى المشفى خوفًا عليه من أن يكون قد تسمم من الطعام الذي تناوله.

اتُخِذت الإجراءات الأمنية اللازمة لنقله إلى المشفى، وتم نقله بحراسة مشددة إلى ذات المشفى الذي تمكث فيه جاكلين.

تم إدخاله إلى قسم الطوارئ، وبعد إجراء الفحوصات الطبية اللازمة قرر الطبيب المناوب إبقاءه في المشفى لأن حالته الصحية تستدعي الرعاية.

تم تحضير غرفةً خاصةً له بعد اتخاذ كافة الإجراءات الأمنية المشددة ونقله إلى تلك الغرفة وتعيين حرس خاص ليقوم بحراسته خوفًا من هروبه. استلقى على سريره في المشفى ورغم شدة الألم الذي يعانيه إلا أنه كان يشعر بالأمان، ليس لأنه بالمشفى، بل لأنه على مقربة من جاكلين دون أن يعلم بذلك، شعر بوجود حبيبته بجانبه رغم أنه لم يرها ولم يعلم بوجودها هناك، ولكنه الشعور الداخلي الذي قد يشعر المرء بالاطمئنان رغم جهله سبب ذلك.

أحست هي الأخرى بنفس الشعور فبدأت حالتها الصحية تتحسن شيئًا فشيئًا..

في صباح اليوم التالي، دخل والدها غرفتها وجلس على الكرسي الموجود بجانب سريرها حيث كانت ترقد في صمت، مدّ يده ولمس يدها برفق ففتحت عينيها ببطء وحين رأته أمامها انهمرت دموعها بصمت تحمل بين قطراتها كل الحزن المتراكم في قلبها.

اقترب منها واحتضنها بقوة وكأنه يحتضن شيئًا زجاجيًا لا يريده أن يفلت منه لكيلا يقع وينكسر.

لم تتوقف عن البكاء وهي بين ذراعي والدها الذي راح يهمس في أذنها بكلمات تجعلها تشعر بالأمان، مؤكدًا لها أن كل شيء سيكون بخير وأن الفرج قريب أقرب مما تظن، مرر أصابعه في شعرها برقة، كما لو كان يلاعب دميته المفضلة حتى هدأ أنينها وسكنت دموعها.

دخلت والدتها في تلك اللحظة ولاحظت علامات الهدوء على وجهها، فسارعت بسؤالها عن السبب الذي أوصلها إلى هذه الحالة.

لكن العمة ماري سبقتها بنظرة عتاب وقالت بحزمٍ لطيف:

– ليس الآن دعيها ترتاح أولا وسنتحدث لاحقًا فهي متعبة ولا تقوى على الكلام.

أومأ والدها موافقًا على رأيها وأضاف موجّهًا كلامه لزوجته:

– الأهم الآن أن تستعيد عافيتها كل شيء آخر يمكن تأجيله...

وما هي إلا لحظات حتى أتى أحد الممرضين وقام بوضع سائل جديد لها يحوي الغذاء اللازم فسأله والدها عن الطبيب المناوب ليقوم بالتحدث إليه والاطمئنان على ابنته.

أخبره الممرض أن الطبيب المناوب سيتأخر قليلاً لأن هناك حالة طارئة في المشفى لإرهابي يعاني من ألم شديد في معدته.

تغيرت ملامح وجه والدتها الهادئه إلى وجه غاضبة عندما سمعت كلام الممرض، وصرخت بصوت مرتفع وهي تقول

– وهل أصبح الاهتمام بالإرهابيين أَولى من رعاية مواطني هذا البلد؟ ألا يكفي ما يفعلونه يخربون ويدمّرون ويقتلون أبناءنا ثم نكافئهم بالعلاج والرعاية..

كان الجميع ينظر إليها، فرد عليها الممرض بهدوء وثبات، وقال:

– نحن هنا في المستشفى لا ننظر إلى الأسماء ولا الأفعال، بل إلى الإنسان، فقط الإنسان.

لا نحكم على أحد فلسنا محكمةً ولسنا جهة عقاب.

حتى من اقترف جرمًا لا تُسقط عنه إنسانيته ولا يُحرَم من حقه في العلاج أو الغذاء.

نحن نؤمن أن الطب لا يفرّق وأن الرحمة لا تُنتقى.

استفز كلامه والدتها أكثر، لذا التفتت إلى زوجها وقالت بحدة:

– لن أبقى هنا دقيقة واحدة، لنغادر الآن.

نهض الأب بهدوء، احتضن ابنته مودّعها وهمّ بالخروج، رافقته زوجته والعمة ماري، التي خرجت وهي تشعر بنوع من الرضا والارتياح لما قاله الممرض، وكأن شيئًا ما في داخلها قد استعاد توازنه.

في هذه الأثناء، وبعد أن قام الطبيب المناوب بتشخيص الحالة الصحية لمجاهد قدم له العلاجات الطبية اللازمة لإزالة آثار السموم من جسمه.

في طريقهم إلى الشقة بدأت والدتها تتمتم وتتوجه بالشتائم إلى العرب والمسلمين وتتحدث عما فعلوه في البلد من إجرام وتخريب، انفعلت العمة ماري فردت عليها:

- هذا الكلام غير جائز، فهذه عنصرية أساسها الحقد على هؤلاء الأجانب الذين لجأوا إلى أرضنا ليحتموا بنا من ويلات الحرب أو الثورات التي يعانون منها ومن ظلم أنظمتهم الجائرة، نعم هناك مخربون ومجرمون، ولكن كم نسبتهم من الأجانب؟ واحد، اثنان، خمسة بالمئة؟ هل يعقل أن نحقد على جميع الأجانب لمجرد أن بعضهم ارتكب أفعالاً مشينة؟ ألا يوجد في السجون فرنسيون أخطأوا؟ ألا يوجد مجرمون فرنسيون؟ هل نحن ملائكة لا نخطئ؟

كانت تسمع كلماتها وهي يملأها التذمر، لكن الصمت ظل رفيقها وكأنها لا تريد أن تضيف صوتًا جديدًا وسط ضجيج لا يعجبها، ولكنها قالت.

لكن هذه الأرض أرضنا؟

حينئذ ابتسمت العمة ماري وقالت:

- إذا كانت الأرض أرضنا فهل هذا يمحو ما نقوم به من جرائم؟ أليس المجرم مجرمًا بغض النظر عن الأرض التي يرتكب فيها جريمته؟ ثم أكملت كلامها قائلةً:

إذا كان علينا أن نتشدد في العقاب فيجب علينا أن نتشدد مع مواطنينا أكثر من تشددنا مع الأجانب، لأنهم يرتكبون الجرائم بوطنهم هم وليس بوطن غيرهم..

تنهدت ثم أكملت لن نصبح بشرًا إلا إذا نظرنا للآخرين على أنهم بشر، يصيبون ويخطئون كما نصيب ونخطئ، لن نصبح بشرًا إلا إذا عاملنا الجميع بإنسانية بغض النظر عن أصولهم، لن نصبح بشرًا إلا إذا نظرنا لجوهر الإنسان لا إلى مظهره، ولون بشرته وما يعتنقه من الأديان، لن نصبح بشرًا إلا إذا غفرنا ونسينا ما اقترفه الآخرون بنا لأنّ ما اقترفناه كان شيئًا من الخيال. نتذكر أخطاءهم ولا نتذكر أخطاءنا. ألم يرتكب جيشنا الاستعماري المجازر بهم وسط تصفيق شعبنا للجيش؟ ألم نحتل أرضهم لسنوات وسرقنا ثرواتهم؟ ما أغربه الإنسان إذ ينسى ما اقترفه من أخطاء ويتذكر أخطاء غيره؛ بل ويذكره بها وكأنه الملاك الذي لا يعرف الخطأ. ملائكة نحن وغيرنا شياطين لمجرد أنهم مختلفين!

وما أن وصلوا إلى المبنى الذي يقطنون فيه حتى خرجت العمة ماري من السيارة غاضبة، فأغلقت الباب بقوة مما دفع والد جاكلين إلى النظر إلى زوجته وراح يضحك بطريقة جنونية، فاستفز هذا الفعل زوجته التي نزلت هي الأخرى غاضبة من فعل زوجها.

صعد كل منهم إلى شقته، وفي شقة جاكلين، دخل والدها وجلس على الأريكة وطلب من زوجته الهدوء وألا تتناقش مع العمة ماري، فهي امرأة مسنة وقد لا تتحمل أعصابها أي نقاش أو قيامها بأفعال مستفزة.

اقتربت منه، وجلست بجانبه، ووعدته حينها بأنها ستكف عن مثل هذه التصرفات، وستعتذر منها وتحافظ على هدوئها في الحديث معها..

سر هذا الكلام والدها وأمضيا ليلتهما معا في حالة مزاجية سعيدة، فهم فرحين بتحسن حالة جاكلين الصحية.

في صباح اليوم التالي، نهضا باكرًا وتوجها إلى المشفى فوجدا العمة ماري هناك تحتضن ابنتهم وتتحدث معها.

سروا بما يروه، إذ أن حالة ابنتهم أصبحت مستقرة تمامًا، لكن والدها عتب على العمة ماري التي لم تنتظرهما لتأتي معهما إلى المشفى، فأخبرته أنها أحبت فعل ذلك وستعود أيضاً وحدها.

سمعت والدتها كلام ماري، فاقتربت منها واعتذرت وقبلت رأسها.

ابتسمت العمة ماري وقبلت اعتذارها فهي تعتبر في سن ابنتها، ولكنها قالت لها:

- إذا كنا قد تربينا على العنصرية والحقد فلا يجوز أن نربي أبناءنا عليها، بل يجب أن نبث فيهم روح التسامح والأخلاق وتقبل الآخر، هكذا تبنى الأمم والسلام بين الشعوب.

أثار هذا الكلام حفيظة جاكلين التي أرادت أن تعرف ما قد حصل بين والدتها وبين العمة ماري، فأخبرها والدها أن الأمر ليس إلا سوء تفاهم وقامت والدتك بالاعتذار بعدما أحست بالخطأ.

في هذه الأثناء، كان الطبيب المناوب قد حضر وطمأن الجميع أن حالتها أصبحت جيدة ويمكنها الخروج من المشفى اليوم..

سر هذا الكلام الجميع وبما فيهم جاكلين، فجمعوا متاعها وحضروا أنفسهم للمغادرة.

وما إن هموا بالخروج حتى انتاب جاكلين شعور داخلي يطلب منها البقاء في المشفى، كيف لا وقلبها كان يشعر بوجود مجاهد بالقرب منها؟

ففي الكثير من الأحيان يكون شعورنا أقرب إلى الواقع من عقولنا، فيحس بوجود الأشياء التي لا تراها أعيننا، فالعين قد تصاب بالعشى فلا ترى ما يراه القلب وإذا كانت العين تخطئ الرؤية فالقلوب لا تخطئ أبدًا.

لكن رغم ذلك غادرت مع أهلها ورافقتهم العمة إلى المبنى الذي يقطنون فيه بعد أن تنقلوا بسيارة والدها.

كانت ما تزال متعبة، فاتكأت على والدها حتى صعدا إلى شقتها، وما أن استلقت في سريرها حتى طلبت العمة ماري من والدها أن تتحدث معه على انفراد.

وما إن لبى طلبها حتى أخبرته بألّا يسألها لا هو ولا زوجته عن مجاهد ثم غادرت إلى شقتها لتستريح.

فهم والدها أن ثمة أمر حدث بين ابنته وبين مجاهد فأقبل إلى زوجته وأخبرها بضرورة ألا تسأل ابنتهما عنه نظرًا لأن حالتها الصحية ليست مستقرة مئة بالمئة.

تفاجأت والدتها من طلب زوجها إلا أنها امتثلت لما قاله خوفًا على شعور ابنتها.

في هذه الأثناء، كانت حالة مجاهد الصحية بدأت بالتحسن وبدأ يشفى من آثار السموم التي في جسده وأوصى الطبيب بإعادته إلى السجن لكن مع تقديم العلاجات التي قدمتها له المشفى.

فتم اعادته مرة أخرى إلى سجن الانتظار لكن نظرًا لظروفه الصحية تم اقتراح نقله من غرفته إلى غرفة أخرى في طابق آخر..

كانت زنزانته الجديدة أفضل إلى حد ما من القديمة، ففيها نافذة يدخل من خلالها نور الشمس وسريرٌ خشبيٌ بدل السرير الإسمنتي، إلا أنها رغم كل ذلك تبقى زنزانة، حتى لو كانت مساحتها بمساحة الكرة الأرضية، فالسجن ليس بضيق مساحته وإنما بتقييد حرية الإنسان التي تمنعه من فعل أي شيء حتى الحركة.

كان مجاهد ما يزال متعبًا ومرهقًا وكان السجان يشق عليه من وقت لآخر، قام باليوم التالي على نور الشمس التي أنارت تلك الغرفة التي تصبح مظلمة كل ليلة، ولكنه تذكر حبيبته وبدأ يحدث نفسه قائلاً: "إذا كانت الشمس تضيء أبصارنا، فمن ذا الذي يضيء قلوبنا غير رؤية من نحب؟ لا الشمس ولا القمر ولا كل نجوم المجرات قادرةٌ على إضاءة ذلك الظلام الذي يخيم على قلوبنا، ومن غيرك يا حبيبة القلب يضيء ذلك السواد الذي يسيطر على قلوبنا، فيعميها؟

يبقى المرء أعمى ما دام من يحبه غائبًا عنه، فالعمى لم يكن يومًا في العيون وإنما العمى عمى القلوب.

باتت الأيام متشابهة تمر ببطء ورتابة لا جديد فيها سوى زيارة المرشد الاجتماعي له كل صباح يرافقه المترجم حسن، ليتفقد حاله وتلبية احتياجاته.

وفي أحد الأيام، قطع مجاهد الصمت وسأل حسن بنبرة تحمل شيئًا من التوتر:

– هل تعرف ما تهمتي؟ أنا لست إرهابيًا، أقسم لك ما فعلته لم أكن واعيًا عليه، كنت تحت تأثير الحشيش الذي دسّه لي معتز دون علمي.

**نظر إليه حسن بأسى وقال:**

**– أنا مجرد مترجم، لست صاحب قرار، كل ما قلته عليك أن ترويه للقاضي حين يُعرض ملفك أمامه.**

**سأله مجاهد بسرعة:**

**– ومتى ستكون جلستي؟**

**تنهد حسن وأجاب:**

**– لا أعلم بعد حين يُحدد موعدها، سيتم إبلاغك هنا في السجن..**

**صمت مجاهد قليلاً، وقال:**

**- مظلومون نحن أينما حللنا، لا نفعل شيئًا سوى أن نهرب من ظالم إلى من هو أشد ظلمًا.**

**نظر إليه حسن وقال:**

**- أتظن أنك ستجد العدل في هذا الزمان؟ العدل دفن منذ أن فقدنا شجاعتنا في التصدي للظلم ومنذ أن فضلنا دنيانا على آخرتنا وكأننا سنخلد فيها.**

**نظر إليه مجاهد وقال:**

**- صدقت، منا من يعيش بجانب الحائط بدل أن يهدمه على الظالم، ومنا من يرضى بالذل لأجل كسرة خبز، ومنا من نافق الحاكم ليتبوّأ مركزًا، ومنا من ظلم نفسه وأقرب الناس إليه ابتغاءً لإرضاء الجلاد، ومنا من عطل قلبه وضميره وعقله فقط ليطعم أطفاله.**

جبناء نحن، نخاف قول الحق خوفًا على حياتنا، وكأن أرواحنا بيد الحاكم لا بيد الله، نخاف الحاكم... ولا نخاف الله، هكذا نحن، نكذب حتى على أنفسنا.

هز حسن رأسه وقال لمجاهد:

- دعك من كل هذا واسترح قليلاً، فأنت ما زلت متعبًا من المرض.

رد عليه مجاهد وقال:

- مرض الله شفاؤه بيد الله، أما مرض أنفسنا فلا يشفيه الله إلا إذا أردنا نحن شفاءه فقد قال الله تعالى: "لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم". صدق الله العظيم.

ردد حسن وراءه وقال: صدق الله العظيم، ثم غادر برفقة المرشد الاجتماعي الذي أثاره الفضول لمعرفة الحديث الذي كان مجاهد يتحدثه مع حسن.

قال له حسن حينئذ:

- إن مجاهدًا كان يسأل عن تاريخ جلسته فأخبرته أني لا أعلم متى ستكون. وما إن أنهى حسن حديثه حتى دخل إلى غرفته في السجن وراح يفكر في كلام مجاهد الذي رأى فيه عين الصواب.

في تلك الأثناء كانت جاكلين مستلقية على سريرها شاردة الفكر تفكر فيه متسائلةً عن أراضيه وعن سبب رحيله وقلبها ينزف بصمت على فراقه رغم الجرح العميق الذي تركه في روحها.

كانت حالتها أشبه بضائع يتخبط بين الطرقات يتنقل شمالًا ويمينًا بحثًا عن طريقٍ لا يعرف أن كان يؤدي إلى بر الأمان أم إلى هاوية أخرى.

تارةً تحن إليه كلما تذكرت خوفه عليها ودفء حبه، وطورًا يمتلئ قلبها غيظًا حين تظن أنه خذلها، وتخلى عنها مفضّلًا عائلته على قلبها..

بعد أيامٍ قليلة كانت حالتها الصحية قد استقرت وعادت إلى حالتها الطبيعية، فطلبت من والديها أن يعودا إلى مدينتهما لكي يتابعا أعمالهما هناك. فطلب منها والدها أن تذهب معهما لتستريح في منزلهم قليلاً إلا أنها فضلت البقاء في باريس لتكمل تحضيراتها لامتحاناتها النهائية.

غادر والداها شقتها بعد أن اطمأنا عليها وأوصيا العمة ماري بمراعاتها وبأن تتفقدها من وقت إلى آخر والتي امتثلت لطلبهما وهي مسرورة بذلك.

كانت الأيام تمر بسرعة ومجاهد ما يزال في زنزانته يفكر بها أكثر مما يفكر بنفسه وبما قد يحدث له عندما يتم عرضه على القاضي.

كان خوفه من حكم جاكلين عليه واتهامها له بالتخلي عنها والتهرب منها أكبر من خوفه ممّا سيؤول إليه حكم القاضي في قضيته.

فنحن أحياناً نكتشف أن صورتنا أمام شخصٍ واحد قد تكون أهم من صورتنا أمام مجتمعٍ بأكمله.

فحين نحب تصبح نظرة من نحب هي مرآتنا ونراها أهم من ألف نظرةٍ من الآخرين.

نحن لا نرى أنفسنا بأعيننا، بل من خلال أعينهم، نخشى أن تهتز صورتنا في أعماقهم أو تتشوه، فنحرص بكل ما فينا أن نظل مثاليين في نظرهم، حتى وإن كنا منكسرين في أعين الجميع.

في تلك الليلة لم ينم مجاهد، وبقي يفكر حتى الصباح في حبيبته، ولم يتوقف حنينه عند هذا الحد، وإنما طلب من مترجم السجن حسن أثناء قيامه

بجولته الروتينية مع المرشد الاجتماعي أن يقوم بإبلاغ جاكلين بأنه موجود في السجن، وأن هذا هو الطارئ الذي منعه من الذهاب إليها وتفقدها.

رفض حسن أن يقوم بذلك، لأن هذا محظور بالنسبة للسجناء المتهمين بالإرهاب.
أردف حسن قائلاً:

- يحظر على من هم متهمين بالإرهاب الاتصال بذويهم إلا بعد موافقة السلطات الفرنسية على ذلك.

وبعد أن قام مجاهد أمام عينَي المرشد الاجتماعي الفرنسي بترجي حسن، شعر الأخير بأنه يتوجب عليه بمقتضى الإنسانية أن يساعده رغم معرفته بعدم جواز ذلك قانونًا.

أخبر "حسن" المرشد الاجتماعي أن مجاهد يريد أن نزوده ببعض الأقلام والأوراق ليقوم باستثمار وقته بالكتابة بدلًا من الملل الذي يعيشه، ثم قام بإبلاغ مجاهد ما كان قد طلبه من المرشد الاجتماعي وأنهم سيقومون بتزويده بأقلام وأوراق بيضاء لكي يقوم بالكتابة عليها وباستثمار وقته إلى حين عرضه على المحكمة حتى لا يستغرب.

غادر حسن برفقة المرشد الاجتماعي، ولكنه قبل مغادرته أبلغ مجاهد أنه سيمر عليه غدًا ليتفقده ويأخذ ورقة مما كتبه وكأنه يقول له "اكتب ما شئت، وسأمر عليك غدًا لأخذ منك ما تريد أن توصله إلى جاكلين".

فهم مجاهد قصده، ووعده بفعل ذلك، وما إن تم إحضار الأوراق البيضاء والأقلام لمجاهد حتى راح يكتب بدموعه وليس بالقلم حنينه واشتياقه لجاكلين، فكتب وكانت دموعه تنهمر كطفل صغير اشتاق لحضن أمه فراح يقول بغصةً لا مثيل لها:

"ليس أنا من يتخلى عنك ومن يخلف عهدًا عاهدتك إياه، لا يهمني ماذا سيحصل ولا يهمني حكم القاضي، ولكني أخاف أن تظلميني بحكمك، ما حال بيني وبينك، كان جنون العشق الذي دفعني للخطأ، اعتقدت للوهلة الأولى أن هناك شيئًا قادرًا على أن ينسي حبك، وإذ بهذا الشيء يتحول إلى مثير ليغضب قلبي ويخرج كل ما به من مشاعر وأحاسيس ويحدث انتفاضة للمشاعر المكبوتة لتخرج كلها دفعةً واحدة تولد هذا الجنون الذي تم إفراغه في تكسير الآليات المركونة على جانبي الطريق وفي تحطيم الرصيف، وكأنني أنتقم من الدنيا وما فيها. صدقيني يا جاكلين لو لم تأتِ الشرطة في الوقت المناسب لكنت قد اجتحت باريس بأكملها بما في داخلي من مشاعر تجاهك. سامحيني يا جاكلين، لم أكن أتخيل يومًا أن أفكر مجرد التفكير ولو لثانيةٍ واحدةٍ أن أكون لغيرك، فحتى لو كنتِ أنتِ لغيري فلن يغير ذلك شيئًا من مشاعري تجاهك. أنا وفقًا لقانون الحب ملزم بأن أوفي لك، ولستِ ملزمةً بأن توفي أنتِ لي، فهذا ليس من قدرتي أنا وإنما أنت فقط من تقدرين عليه وحدك. رغم كل ما حدث سأقول لك: إني باقٍ على حبك مهما حصل، وأنا لا أكتب لكِ لإثبات ذلك، لأنكِ تعلمين أن حبك هو الهواء الذي أتنفسه ولكني أكتب لك لكي تعلمي أنني لم أرحل وباقٍ رغم تباعد المسافات التي تفصل بيني وبينك.

ها أنا هنا في زنزانتي يسيطر عليّ خوفٌ وحيدٌ هو الخوف منك، الخوف من أن أكون قد تغيرتُ في داخلك أو اهتزت صورتي التي كونتها بحبي لك.

وها هي الظروف تمنعني مرةً أخرى أن أعبر عن كل ما في داخلي من مشاعر حب تجاهكِ، فهم قد أعطوني أوراقًا لأكتب فيها، وهم لا يعلمون أن الكتابة عن حبي لكِ لا تكفيه آلاف المجلدات، ولا تنصفه ملايين الروايات، بل إن أوراق العالم كله لا تستطيع أن تحمل جزءًا طفيفًا من المشاعر التي أكنها لكِ.

هي هكذا يا جاكلين، النفوس؛ قد تهوى فعل الكثير، ولكنها تتقيدُ بالظروف، فالإنسانُ أسيرُ ظروفه، لا يقوى على فعل شيء إلا إذا كانت الظروف سامحةً بذلك".

أنهى رسالته بكتابة عنوان جاكلين في أسفل الصفحة وبكلمة أحبك وطوى الورقة ووضعها تحت وسادته.

بقي مستيقظًا ينتظر حسن ليمر عليه وكأنه ينتظر طيره الذي سيرسله برسالته إلى من يحب.

بعد شروق الشمس بعدة ساعات قليلة مر حسن برفقة المرشد الاجتماعي ودخلوا إلى غرفة مجاهد ليريا إذا ما كان يحتاج شيئًا، كان مجاهد يخفي رسالته في بنطاله وما إن دخل حسن والمرشد الاجتماعي إلى غرفته حتى بدأ يتحدث إليهما ويطلب منهما أشياءَ لا داعي لها كالكتب ويستفسر عن أشياء يعرف إجابتها من قبل وكان الهدف من كل هذا أن يفتح حديثًا ليس إلا، وما إن هما بالخروج من الغرفة حتى طلب حسن من المرشد الاجتماعي أن يخرج أولاً حتى أسقط مجاهد الورقة من بنطاله وقال حسن:

- حضرة المترجم، لقد سقطت منك ورقة على الأرض.

فقام حسن بانتشالها ووضعها بين أوراقه.

فتح حسن الملف الذي كان يحمله بيده فوجد الرسالة باللغة العربية فقام بترجمتها للغة الفرنسية وهو في مكتبه، وما إن أنهى حسن عمله حتى ذهب مسرعًا إلى العنوان المكتوب في أسفل الرسالة، قرع جرس باب شقة جاكلين الموجود في أسفل المبنى فلم يفتح له أحد، فأخذ رسالة مجاهد بيده وعاد بها إلى منزله، فاستراح قليلاً حتى حل الغروب.

خرج من منزله وتوجه إلى المبنى الذي تقطن فيه جاكلين مرة أخرى فقرع جرس شقتها الموجود في خارج المبنى..

فسألته من يكون، فأخبرها أنه يحمل رسالة لها من شخص تعرفه.

تفاجأت جاكلين من كلامه، فساعي البريد يأتي غالبًا في النهار ولا يأتي بحلول الغروب، فخافت منه وطلبت منه أن يدع لها الرسالة في صندوق البريد الخاص بها.

استهجن حسن تصرّف جاكلين في البداية، لكنه سرعان ما تفهّم مخاوفها فاستجاب لطلبها دون نقاش خاصّة لم يُطِل التفكير فقط فعل ما أرادته مدفوعًا بإحساس غامض بالمسؤولية..

فوضع الرسالة بلغتها الأصلية وترجمتها في صندوق البريد الخاص بجاكلين وغادر، وما إن غادر حتى نزلت هي إلى صندوق بريدها ففتحته وأخذت الرسالة وعادت إلى شقتها، وما إن قرأت أول كلمة حتى راح قلبها يخفق بقوة وما إن علمت أن مجاهد في السجن حتى أصابتها حالة من الانهيار فأكملت الرسالة ودموعها تنهمر بشدة إلى أن أنهتها، وما هي إلا دقائق حتى قصدت شقة العمة ماري التي فتحت لها ودعتها إلى الدخول.

كانت حالة جاكلين سيئة للغاية فسألتها العمة ماري عن السبب فقالت لها:

- اقرأي.

فنظرت في الرسالة فوجدت ما هو مكتوب باللغة العربية فقالت لجاكلين:

- ما هذه اللغة؟ لا أعرفها.

فنظرت جاكلين في الرسالة وإذ هي باللغة العربية فقامت بقلب الصفحة للعمة ماري إلى الصفحة التي تحتوي الترجمة للغة الفرنسية.

أصابت العمة ماري حالة من الذهول عندما قرأت الرسالة إلا أنها كانت في داخلها مسرورة لأنها أيقنت أن مجاهدًا لم يرحل إلا لظرف شديد حصل له. نظرت إلى جاكلين وطلبت منها أن تهدأ لتحاولا إيجاد حل لهذه الأزمة، فطلبت منها الجلوس ثم أعدت لها كوبًا من الشاي ليهدأ من روعها.

جلست جاكلين على أريكة العمة ماري خائفة على مصير مجاهد، فأبلغتها العجوز بضرورة أن تتحلى بالصبر والحكمة لتتمكنا من مساعدته بما هو فيه. اقترحت عليها العمة ماري أن يقوما سويًا بالذهاب إلى قسم الشرطة للسؤال عن مكان مجاهد إذ أن فرنسا عامةً وباريس خاصة تحتوي أكثر من سجن واحد، فضلاً على أنه في الرسالة التي أرسلها مجاهد لم يكن مذكورًا اسم السجن الذي هو فيه أو مكانه، في هذه الأثناء، كان حسن في منزله يقوم بتسخين الماء للشاي وما إن خطر بباله أن تقوم جاكلين بإبراز الرسالة التي أعطاها إياها لدى أي من السلطات الفرنسية المختصة حتى سكب الشاي على نفسه وتخوف على نفسه من أن تقوم السلطات الفرنسية بالتعرف على هوية الشخص الذي أوصل الرسالة لجاكلين وأبلغها بمكان مجاهد قبل الإذن بذلك من المدعي العام إذ أن هذا مخالف للقانون، فيحظر على المترجم بحسب القانون الفرنسي تقديم أي معلومات عن السجناء المتهمين بالإرهاب.

لم ينم حسن ليلته، وبقي مستيقظًا حتى الصباح، فبدل ملابسه في الصباح الباكر وتوجه إلى المبنى الذي تقطن به جاكلين، فقرع جرس شقتها الموجود في أسفل المبنى فلم يفتح له أحد، فأعاد قرع الجرس من دون أي نتيجة، فغادر حسن خائفًا على مصيره.

لم يكن يعلم أن يوجد مكان آخر بنفس المبني يمكنها المكوث فيه، ففي هذه الليلة كانت جاكلين في شقة العمة ماري قد غلبها النوم على الأريكة، فتركتها العمة ماري نائمة حتى الصباح، وما إن استيقظت حتى راحت تتلفت حولها

لتعرف أين هي، وما إن رأت العمة ماري حتى استقبلتها الأخيرة بابتسامة عريضة وقالت لها:

- أنتِ هنا في شقتي فقد غلبك النعاس ولم أوقظكِ.

تبسمت جاكلين، ونهضت بسرعة، وسألت العمة ماري إذا ما كانت ستأتي معها إلى قسم الشرطة لتسأل عن مجاهد، فطلبت منها العمة ماري أن تتريث وتشرب قهوتها وتفطر ثم تذهبان سويًا، فما كان من جاكلين إلا أن أجابتها وقالت:

- ليس مهمًا، فالأهم أن نذهب للشرطة لنسأل عن مجاهد.

ذهبت جاكلين إلى شقتها، فبدلت ملابسها، وعادت إلى شقة العمة ماري فأخذتها بيدها وتوجهتا إلى أقرب قسم شرطة ونسيت رسالة مجاهد على الطاولة في شقة العمة ماري.

وعند وصولهم لقسم الشرطة طلب الشرطي المناوب من جاكلين اسم مجاهد بالكامل فزودته به، وبعد أن قام الشرطي بالبحث في الحاسب الآلي الموجود أمامه أبلغهما بأن أسمه غير موجود في بيانات الحاسب الآلي رغم رؤيته لاسمه في اللوائح الخاصة بالمتهمين المتهمين بالإرهاب.

تفاجأت جاكلين من قول الشرطي، فأخبرته أنه مسجون في السجون الفرنسية.
فسألها الشرطي وقال:

- وكيف عرفت أنه مسجون في السجون الفرنسية؟

أخبرته جاكلين أنها قد وصلتها رسالة منه مكتوب فيها أنه مسجون دون ذكر اسم السجن أو مكانه، فسألها الشرطي عن الرسالة فأخبرته أنها نسيتها على الطاولة في شقة العمة ماري.

طلب منها الشرطي أن تذهب إلى الشقة لتحضرها، أخذت جاكلين مفتاح شقة العمة ماري وطلبت منها أن تنتظرها في إحدى المقاهي القريبة من قسم الشرطة إلى أن تعود.

في هذه الأثناء، كان حسن يقرع جرس شقتها، واستطاع أن يحدد الطابق الذي تقطن به الذي يتكون من عدة شقق.

عادت جاكلين وحدها إلى شقة العمة ماري، وما أن فتحت باب المبنى لتدخل إذ بحسن يدخل وراءها ويصعد معها في نفس المصعد دون أن يعرفها، فنزلت من المصعد، وتوجهت مباشرة إلى شقة العمة ماري ففتحت الباب ودخلت. وما إن دخلت حتى ذهب المترجم حسن إلى نفس الشقة ليقرأ الاسم المكتوب على الباب، فلم يلحظ وجودًا لاسم جاكلين فاستقل المصعد مرة أخرى، ونزل وخرج من المبنى.

أخذت جاكلين الرسالة ووضعتها في محفظتها، وغادرت الشقة ثم المبنى وإذ بحسن ينتظرها في الخارج، حاول حسن أن يستوقفها، إلّا أنها اعتذرت منه قبل أن يتفوه بكلمة متذرعةً أنها في عجلة من أمرها.

وفي أثناء غياب جاكلين قام الشرطي المناوب بإبلاغ مسؤوله عما حدث، فطلب منه مسؤوله إدخالها إليه عندما تحضر.

توجهت جاكلين مباشرةً إلى قسم الشرطة، وقد نسيت أن العمة ماري تنتظرها في إحدى المقاهي المجاورة، فدخلت القسم وأبرزت الرسالة للشرطي المناوب الذي طلب منها الاحتفاظ بها وأن تتبعه إلى مسؤوله المباشر.

قام مسؤول قسم الشرطة بالتحقيق مع جاكلين عن كيفية وصول الرسالة إليها، فأخبرته بما قد حدث، وأنها لم تر الشخص الذي قام بتوصيل الرسالة لها.

دون الشرطي المساعد كلامها، وطلب مسؤول السجن من جاكلين أن يقوم بتصوير الرسالة فقامت بتقديمها له.

قام الشرطي المساعد بتصوير الرسالة وأعادها لها.

حينئذٍ قرر مسؤول السجن بإخبارها أنه لا يوجد في سجون فرنسا أحد بهذا الاسم.

راحت جاكلين تتمتم قليلاً ثم قالت له:

- إذًا لماذا قمت بتصوير الرسالة إذا لم يكن أحد بهذا الاسم لديكم؟

أخبرها المسؤول حينها أنه سوف يقوم بالتحقق مرة أخرى من هذا الأمر. خرجت جاكلين من القسم حزينة، وإذ هي تلتقي بالعمة ماري تنتظرها في الخارج وتسألها عن سبب تأخرها، روت لها ما حدث، فتفاجأت من تصرفات رجال الشرطة.

عادت جاكلين برفقة العمة إلى المبنى الذي تقطنان فيه، وإذا بحسن ينتظر في الخارج لم يمل من قرع جرس شقتها، وما إن رآهما حتى استوقفهما فتوقفتا فسألهما عن جاكلين.

ردت جاكلين وقالت:

- أنا جاكلين ومن أنت؟

قال لها:

- لقد استوقفتكِ قبل قليل ورفضتِ التوقف.

فقالت له:

- آسفة كنت في عجلة من أمري، ولكن من أنت؟

**قال لها:**

**- أنا المترجم حسن وقمت بالأمس بإيصال رسالة لكِ من مجاهد.**

**صرخت جاكلين وقالت:**

**- مجاهد.. أين هو؟**

**قال لها حسن:**

**- اهدئي، سأخبرك بكل شيء.**

**طلبت منها العمة ماري الهدوء ودعتهما للصعود إلى شقتها ليتحدثوا هناك. صعدوا جميعًا إلى شقة العمة، وهناك أخبرهما حسن أن مجاهد مسجون في أحد سجون باريس.**

**قالت جاكلين:**

**- نعم قد علمت ذلك من رسالته، وكنت قد ذهبت إلى قسم الشرطة برفقة ماري لأتحصل منهم على معلومات، لكنهم نفوا أنه مسجون لديهم.**

**طلب منها حسن أن تخبره بما حدث بالتفصيل، فأخبرته أنها ذهبت إلى هناك لتسألهم عن مجاهد، فأنكروا وجوده لديهم، وطلبوا منها إحضار الرسالة التي وصلتها منه فأحضرتها لهم، ولكنهم رغم ذلك نفوا وجوده في سجونهم.**

**لطم حسن على وجه وقال:**

**- أين هي الرسالة الآن؟**

**ردت جاكلين قائلةً:**

**- هي معي، لكنهم قاموا بتصويرها واحتفظوا بالصورة لديهم.**

هنا صمت حسن قليلاً، وأدرك أن حياته المهنية قد انتهت لأنه سيحال للتحقيق بتهمة خرق الأصول المهنية المتمثلة بتقديم بيانات ومعلومات دون إذن مسبق من المراجع المختصة.

هنا سألته جاكلين عن تهمة مجاهد فقال لها:

- بما أني سأحال للتحقيق فسأقول لك كل ما أعرفه:

- إن مجاهد متهم بالإرهاب، وتكسير آليات، والاعتداء على الأملاك العامة.
صفعت جاكلين وجهها بيديها وبدأت تبكي، فيما سيطرت الصدمة على العمة فالتزمت الصمت.

حاول حسن تهدئتهما وقال لهما:

- إنه مجرد ادِّعاء، ولم يُعرض بعد على القاضي للنظر في قضيته..

في هذه الأثناء، سألته العمة ماري لِمَ سيحال هو أيضًا للتحقيق، فقال حسن:

- إنني أعمل كمترجم في السجن، ويحظر علينا كمترجمين إفشاء أسرار المساجين، وخصوصًا المتهمين بالإرهاب دون إذن مسبق من المدعي العام، وما قمت به كان فقط لمساعدة مجاهد، فقد رأيت كم كان يتعذب وهو في زنزانته متخوفًا من أن تظن به جاكلين شرًا، أي أن تعتقد أنه يتهرب منها لسبب أو لآخر.
طلب حسن من جاكلين التوقف عن البكاء، فامتثلت الأخيرة، وسألته عن كيفية مساعدة مجاهد وهو في زنزانته.

أخبرها حسن أن زيارته الآن ممنوعة بحكم قانون الإرهاب وأنها لا تستطيع أن تفعل له شيء في الوقت الحالي.

حزنت جاكلين كثيرًا لما سمعته، فراحت العمة ماري تطبطب عليها وتتوجه إلى المترجم حسن بالكلام وتعتذر منه وتقول له:

- سامحنا يا حضرة المترجم فلم نكن نقصد ما فعلنا، فها نحن قد سببنا لك ضررًا لا أحد منا يعرف إلامَ سينتهي.

فرد عليها:

- هذا كان نصيبي، وإن الله يعلم ما كان في قلبي، فنويت المساعدة وقدمتها وما يحدث نتيجة لذلك فأنا راض به.

وأردف قائلاً: إن الخير كله بما يجلبه الله لي، سواء أكان خضوعي للتحقيق أو حتى توقيفي عن العمل.

طلب حسن الإذن بالمغادرة، فقامت جاكلين بالاعتذار منه مرة أخرى، فقبل اعتذارها، وما إن هم بالخروج من الشقة حتى سألته إذا ما كان سوف يرى مجاهد، فأجابها حسن أنه سيذهب إلى العمل كعادته في صباحاً وسيقوم بعمله كالمعتاد طالما لم يصدر قرار بحقه بإيقافه عن العمل، فسألته إذا ما كان يستطيع أن يوصل رسالة لمجاهد ستكتبها له بخط يدها، فأخبرها حسن أنه سيحاول فعل ذلك، وما عليها سوى كتابتها وسيقوم هو بترجمتها وإرفاق الترجمة بالرسالة الأصلية، فطلبت منه أن يجلس حالما تنهي كتابة رسالتها، فجلس ينتظرها.

قامت جاكلين وأحضرت ورقة وقلم وبدأت بكتابة رسالتها، فراحت تكتب:

"يا كل القلب، لا أريد أن أعرف ماذا فعلت ولا أريد أن أعرف لماذا فعلت.
أريد منك شيئًا واحدًا هو أن تعلم أني سأبقى ظلك الذي لا يفارقك مهما حصل.
سأبقى أنتظرك مهما كان حكم الدنيا قاسيًا عليك.

سأبقى لك لا يلتفت نظري حتى إلى الطبيعة.

سأبقى لك لا تمسني حتى نسمات الهواء.

سأستنشق رائحتك وأستغني عن الهواء.

لا تضعف ولا تيأس سأقاوم معك العالم ولن نخسر طالما أننا سويًا، حتى لو خسرنا كل معاركنا.

لا تحزن ولا تفكر إلا في أنني سأبقى معك ولك."

ختمت جاكلين رسالتها وأعطتها لحسن وترجته أن يقوم بترجمتها للعربية وإيصالها لحسن بشرط ألّا يعرض نفسه للمخاطرة.

وعدها حسن بالقيام بذلك وأخذ الرسالة منها وغادر بعد توديعها هي والعمة ماري التي شكرته على ما فعله من أجل مجاهد.

توجه حسن إلى شقته، وهناك قام بقراءة ما كتبته جاكلين لمجاهد ليقوم بترجمته، وما إن قرأ الرسالة حتى بدأ يسأل نفسه:

"هل يوجد في هذا الزمان هكذا حب وهكذا وفاء؟"

نظر في الرسالة مرة أخرى وقال:

"لم يكن يومًا العيب في الحب وإنما كان العيب فينا."

نحن الذين لم نعد نصلح للحب، نمل بعد فترة، نتوقف عند كل خطأ أخطأه من نحب، لم نعد نجيد التجاوز ندقق في أدق التفاصيل ونفتش عن الهفوات. وإن تسامحنا، يكون تسامحًا مؤقتًا... نعود فنحيي الأخطاء مع أول زّلة. لا نرضى بما قسمه الله لنا ولا نتقبل من نحب كما هم، بحسناتهم وسيئاتهم، نعامل بعضنا كمن ينتظر الآخر كي يخطئ وحينما يقع ننسى ذكرياتنا الجميلة معه ونتذكر زّلاته حتى لو كانت طفيفة.

لم أعد أعلم كيف يمكن لحب ما أن يستمر إذا ما ترصد بعضنا البعض لأخطاء الآخر... وبدل أن نكون الملجأ لمن نحب؛ نشد على يده عندما يحتاجنا؛ ها نحن نفلت أيدينا من أيدهم أمام أول عثرة..

يريد كل منا الآخر أن يكون معصومًا عن الخطأ بدل أن يكون كل منا للآخر سندًا في أوقات ارتكاب الأخطاء وأوقات الشدة.

غريب هذا العصر، فرغم كل التطور العلمي والتكنولوجي الذي يعيش فيه الإنسان إلا أنه ما زال قاصرًا في فهم أن أساس الإنسان هو الخطأ، وأن الاستمرارية هي في التسامح والعفو عن بعضنا الآخر.

بهذا يفترق مجاهد وجاكلين عن غيرهم من هذا الجيل فهم قد وصلوا إلى الفهم الكامل لمعنى الحب، هذا الحب الذي أساسه اختلاق الأعذار بدل الشك، التسامح بدل الحقد، التمسك بدل التخلي، المساعدة بدل التجاهل، الحنان بدل الجفاء والعطاء دون انتظار المقابل.

صمت حسن قليلاً وأعاد قراءة رسالة جاكلين، وراح يترجمها.

وما إن أنهى ترجمتها حتى أرفق الترجمة بالرسالة الأصلية، ووضعها في محفظته ليعطيها لمجاهد في اليوم التالي.

في تلك الليلة، كان مجاهد قلقًا إلى حدّ الاختناق فحسن لم يأتِ إلى عمله كعادته نهارًا، مما أشعل في صدره نارًا من القلق.

كلما سمع وقع أقدام في الممر المؤدي إلى زنزانته نهض من سريره ظانًّا أنه سيظهر، لكنّه يعود إلى صمته بعدما يخيب ظنّه.

نسي لوهلة أنه خلف القضبان إذ لم يكن يفكر إلا بشيءٍ واحد كيف ستكون ردة فعل حبيبته حين تعلم بما جرى له؟

كان خوفه على حبّه أكبر من خوفه من السجن، بل حتى من السجّان الذي يمر أمام زنزانته بين حينٍ وآخر.

أما حسن فقد نام تلك الليلة وهو يشعر بالرضا، فخورًا بما فعله لأجل إنقاذ حبّ جاكلين ومجاهد، لم يشغل باله ما قد يترتب على قراره..

فما أسوأ هذا الحال الرديء الذي أصبح فيه كل شيءٍ بمقابل.

وما أقبح هذا الواقع الذي أصبحت فيه الأنانية غريزة متجذرة في الإنسان.

ويا لسوء هذا الزمن الذي اتخذ من المال عنوانًا له.

وكم هو مؤلم أن تصبح الخيانة عادةً يومية.

ويا له من حالٍ قاتم حين ترتدي الكراهية ثوب التسامح...

بئس هذا الحال الرديء الذي أصبح فيه كل منا ينظر للآخر على أنه عدوه الذي سيأخذ من نصيبه في هذه الحياة.

لم تنم جاكلين في هذا الليلة مثلها مثل مجاهد وكأنهما يسهران سويًا، وكل منهما خائف على الآخر أكثر من خوفه على نفسه وكأن قلوبهما تعيش كل منها بجسد الآخر... ورغم كل هذا الضجيج الذي يسيطر على تفكيرهما إلا أنهما كانا مسرورين بما في داخلهما من مشاعر تجاه الآخر. الحب الحقيقي هو أن نسعد بما نقدمه من مشاعر وليس بما نتلقاه من الطرف الآخر، فما هو إلا أن يقوم من يحب بإسعاد قلب الآخر بأبسط الأشياء، حتى لو كان ذلك بابتسامة عابرة أو بوردة نقطفها حتى من على الطريق.

بقي كل من مجاهد وجاكلين مستيقظًا حتى الفجر يفكر بما قد تحمله لهما الأيام المقبلة.

ومع حلول الفجر نهض مجاهد من على سريره فتوضأ وراح يدعو لجاكلين ونسي نفسه..

وفي نفس الوقت فاق حسن، وتناول طعامه، وحمل محفظته، وذهب كعادته إلى عمله.

دخل مكتبه ينتظر المرشد الاجتماعي ليقوم معه بجولته المعتادة على المساجين، وكان قلبه يخفق بسرعة وكأنه يحمل أمانات الدنيا كلها في يده، وما إن حضر المرشد الاجتماعي حتى رافقه حسن في جولته لتفقد المساجين.

كان مجاهد في هذا الوقت يترقب خطوات كل من يمر من أمام زنزانته، ينتظر قدوم حسن إليه، وكأنه ينتظر قرار الإفراج عنه، وما إن رآهما من خلف الباب حتى راح يطلب من المرشد الاجتماعي مقابلته يتحجج باستفساره عن بعض الأشياء.

فتح السجان زنزانته، ودخل كل من المرشد الاجتماعي وحسن. كان يبدو الارتباك على مجاهد، فراح يسأل المرشد الاجتماعي إذا ما كان يمكنه الالتحاق بمدرسة تعلم اللغة الفرنسية، فترجم حسن ذلك للمرشد الاجتماعي الذي أخبره أنه لا يمكنه ذلك إلا بعد أن يتم البت في قضيته. ترجم حسن ذلك لمجاهد، وما إن أنهى حسن ترجمته حتى همّا بالخروج من الغرفة.

قام حسن بدعوة المرشد الاجتماعي أن يخرج أولا من الزنزانة أي على سبيل الاحترام، وتبعه هو بعد أن قام بإسقاط الرسالة من جيبه عمدًا.

وما إن قام السجان بإغلاق باب الزنزانة حتى أمسك مجاهد الرسالة من على الأرض وفتحها، وما إن قرأ أول ثلاث كلمات حتى انهمرت دموعه فرحًا.

أكمل مجاهد قراءة الرسالة، وكان يقبل أحرفها حرفًا حرفًا إلى أن أنهاها. كان مسرورًا بما قرأه منها وكأن هذه الرسالة كانت حكم البراءة الذي ينتظره. أمضى مجاهد يومه مسرورًا بسبب ما قرأه من كلمات كتبتها له حبيبته التي كانت هي الأخرى تقوم بمذاكرتها كالعادة والتحضير لامتحاناتها النهائية للتخرج من كلية الحقوق.

وأثناء قيام حسن بتحضير أمتعته لمغادرة السجن طلب منه أحد مسؤوليه الحضور إلى مكتبه على الفور، علم حسن أن استدعاءه هو بخصوص تسريب المعلومات حول مجاهد، والاتصال بمعارفه من دون أخذ الإذن المسبق لذلك من قبل المراجع المختصة، وما إن دخل مكتب مسؤول السجن حتى طلب منه الجلوس، فجلس حسن وعندئذ تناول مسؤول السجن صورة من رسالة مجاهد وأعطاها له.

وبعد أن قام بذلك قال له:

- يا حضرة المترجم أنا اتحدث إليك الآن بصفة شخصية، وأريد أن أسألك إذا ما كنت أنت من قام بترجمة هذه الرسالة ومن قمت بالتواصل مع معارف مجاهد في الخارج وتوصيل رسالته إليهم أم لا؟

اعترف حسن بذلك وقال بكل صراحة:

- نعم، أنا من قام بترجمة رسالة مجاهد وقمت بتوصيلها إلى معارفه.

عندئذٍ قال له المسؤول:

- يا حضرة المترجم ألا تعلم أن هذا ممنوع بحكم القانون، وأنه يستوجب عليك قبل إتيان هكذا فعل أن تقوم بإخطار السلطات المختصة وطلب الإذن منها؟

رد عليه حسن قائلاً:

- يا حضرة المسؤول أنا قبل أن أكون مترجمًا فأنا إنسان، وقد أشفقت على مجاهد عندما رأيته يتألم كل يوم ولم أفعل شيئًا لمساعدته سوى إيصال مجرد رسالة، كما أنني لو قمت بإخطار السلطات المختصة بذلك فإن ذلك لن يغير في الأمر شيئًا، لأنهم لم يوافقوا على هذا الفعل.

أنا قمت في النهاية بعمل إنساني رغم معرفتي المسبقة بأنه عمل غير مشروع قانونًا، وأنا مستعد لتحمل تبعات هذا الأمر بنفسٍ راضية.

صمت مسؤول السجن قليلاً، ثم قال له:

- نعم، أعلم أن ما قمت به هو عمل إنساني بالنسبة لك، لكنه غير مشروع بحكم القانون، وأنا مضطرٌ لتنفيذ القانون، وأن أقوم بإحالتك للتحقيق، وتوقيفك عن العمل إلى حين انتهاء التحقيق.

رد عليه حينها قائلاً:

- أنا فخور بما فعلته، فلقد رأيتُ شخصًا أمامي يعاني بسبب بعده عن حبيبته وعدم قدرته على التواصل معها وإخبارها بأن هناك مانع حال بينه وبينها، وقمت بإنهاء هذه المعاناة عبر توصيل رسالته لحبيبته وطمأنتها عليه، وأنا مستعد أن أتحمل المسؤولية الكاملة لإتيان هكذا فعل.

استهجن المسؤول كلامه وهدوء أعصابه لكنه لم يتفوه بشيء، وما إن غادر حسن حتى راح مسؤول السجن يفكر فيما قاله بأنه فخور بما فعله رغم معرفته المسبقة بأن إتيان هذا الفعل قد ينهي مستقبله، فراح يقول لنفسه:

"نعم هم موجودون أولئك الذي يضحون بأنفسهم من أجل سعادة الآخرين، مستعدون أن يؤذوا أنفسهم، فقط ليزرعوا إبتسامة على وجوه من حولهم".

ثم قال بينه وبين نفسه: "اعذرني أيها الطيب، لا سلطة لدي سوى أن أحولك للتحقيق رغم إيماني المطلق أن مثل هذه الأفعال تستحق التكريم وليس

العقاب". فهذا هو الجانب السلبي للقانون الذي يجرم الفعل بالنظر إلى المصلحة العامة للمجتمع وليس بالنظر إلى المصلحة الشخصية للفرد، رغم أن هذه الأخيرة قد تكون في الكثير من الأحيان أهم من المصلحة العامة ككل.

في هذه الأثناء، عاد حسن إلى غرفته، وجمع أمتعته القليلة، وأخذ ما تبقى من أغراضه الشخصية، ثم غادر السجن بخطى هادئة متجهًا إلى شقته وكأنّ صفحةً من حياته قد طُويت بصمت.

وفي اليوم التالي، لاحظ مجاهد أن مترجمًا آخر هو من يتجول مع المرشد الاجتماعي. وما إن حضروا إلى غرفته حتى سأل مجاهد عن المترجم حسن، فأخبره المترجم الجديد أنه مريض ويمكث في منزله وأنه هو المترجم الجديد من سيحل محله لحين عودته لعمله...وبعد خروج المترجم الجديد والمرشد الاجتماعي من زنزانة مجاهد، أصابته حالة من القلق مما سمعه، فهرع إلى مرتبته وتناول رسالة جاكلين وراح يفتتها إلى فتات صغيرة وقام برميها في المرحاض، ثم سكب الماء عليها لتختفي.

كان إحساس مجاهد في محله، فما هي إلا ساعة حتى حضرت لجنة لتقوم بتفتيش زنزانتة، ففتشوها بالكامل إلا أنهم لم يعثروا على أي شيء بداخلها. أدرك مجاهد أن السلطات قد كشفت حسن وأنه تعاون معه، فعاد الحزن يتسلل إلى قلبه من جديد بعد أن كانت رسالة جاكلين قد خفّفت من وطأته.

راح يلوم نفسه بشدة شعر أن ما حدث لحسن كان بسببه ويخشى أن يدفع ثمن مساعدته له، ويكون سبب ايذائه..

ولكنه بطبيعته لا يحب أن يتسبب بالأذى لأي شخص.

صار يعاني بصمت أضعاف ما قد يعانيه حسن.

# الفصل الرابع

# أقوال وأدلة

مرت الأيام وذات يوم قام حسن بزيارة جاكلين والعمة ماري وطمأنهما على أنه قام بتسليم رسالتها إلى مجاهد وأنه بحالة جيدة في السجن. سرت جاكلين والعمة ماري بما سمعاه منه وشكرته كثيرًا عما فعله من أجلهم،

ومن حديث إلى حديث أوصته العمة ماري بتوصيل سلامها إلى مجاهد، فنظر إليها حسن وأخبرها أنه تم توقيفه عن العمل وشرح لهم ما حدث معه.

بدأت جاكلين تلوم نفسها عمّا حدث واعتذرت لحسن بعينين دامعتين.

فتقبّل اعتذارها بلطف، وقال لها بصوت هادئ:

.. لستِ أنتِ من أخطأ، بل كان عليّ أنا أن أخبركِ بأن لا تحاولي إبلاغ الشرطة وابلاغهم عن الرسالة..

لكن هذا قدري أن يتم تحويلي للتحقيق بسبب ما فعلت، ومع ذلك لست نادمًا، بل على العكس تمامًا أنا سعيد لأني أعدت لكِ ولمجاهد ابتسامتكما، ومنحتكما الأمل في أن تكملا طريقكما معًا برغم كل الظروف التي يمر بها.

يا ابنتي، ربما أنا أكبر منكِ سنًا وتجربتي في الحياة أطول قليلًا لذا اسمحي لي أن أقول لكِ:

لا تندمي على خيرٍ سعيتِ إليه فمن سعى في الخير لغيره وجده يعود إليه من حيث لا يدري.

ومن زرع الشر في طريق الآخرين سلّط الله عليه من هو أشر منه.

الخير لا يضيع من ذاقه عرف طعمه ومن سار في درب الشر نال سُمّه.

أنا فعلت ما رأيته صوابًا وأرجو من الله أن يرده لي بخيرٍ عاجل أو آجل.

وربما في توقيفي عن العمل أو حتى في سجني خيرٌ لا أراه الآن لكنه مخبّأ في باطن الأمور فالله لا يختار لنا إلا ما هو الأصلح.

فلا تفكري كثيرًا يا ابنتي ركّزي في دراستك ودعي الباقي على الله.

صمتت جاكلين طويلًا، يتصارع في داخلها الندم والعرفان ثم رفعت نظرها إليه وسألته بخجل:

– هل يمكنني مساعدتك بشيء فقال لها:

- سأكون مسرورًا كثيرًا إذا لم تتخليْ عن مجاهد، فلم أرَ منه سوى كل الاحترام والأخلاق والود، وكأن قلبه كان يذوي في غيابك.

وعدته جاكلين بأنها لن تتخلى عنه وأنها ستبقى تحارب من أجله حتى الرمق الأخير.

استأذنهما حسن بالمغادرة، وعاد إلى شقته، وبقيت جاكلين تسهر مع العمة ماري التي بقيت صامته مذهولة بما سمعته ثم قالت لجاكلين:

- هذا هو الجانب المشرق للعرب، رجال، أصحاب نخوة، متعاطفون ورحماء فيما بينهم، لا يتركون بعضهم البعض في شدتهم، ويضحون بأنفسهم من أجل غيرهم، فيهم من الرحمة والشهامة الكثير.

هذا هو أصلهم، وكأن عاداتهم تختلط بدمائهم وتمشي في عروقهم، فيهم جانب نفقده نحن، العرب يصلون أرحام بعضهم البعض، يحنون على بعضهم البعض لمجرد أنهم يسمعونهم يتحدثون باللغة العربية.

سمعت جاكلين من العمة ماري الكثير عن العرب وعاداتهم، فراحت تتذكر بعد كل حديث من العمة ماري مجاهدًا وحبه لها، شهامته معها ومعاملته له. وبعد أن تعبت العمة ماري من الكلام غادرت جاكلين إلى شقتها تتذكر كلامها وما دار من أحداث تؤكد كلامها، فراحت تبحث عن العرب وعاداتهم مستخدمةً حاسوبها الآلي وتقرأ عنهم حتى قررت أن تقوم بالاطلاع على الدين الإسلامي كمصدر أساسي من مصادر عادات العرب وقيمهم.

قرأت قليلاً، ثم نوت أن تتعمق في البحث عن العرب ودينهم بعد أن تنهي سنتها الأخيرة في الجامعة.

بعد هذه الليلة الطويلة خلدت جاكلين إلى النوم، أما مجاهد فظل ساهرًا يفكر بكل ما يدور حوله من أحداث، استمر في قلقه الذي كان يزداد كلما رأى المترجم الجديد يأتي إليه بدلاً من حسن.

تأكد حينها أنه حدث لحسن مكروه، لكنه كان يخاف في كل مرة يريد أن يسأل عنه، لذلك كان يتراجع دائمًا.

بقي مجاهد في زنزانته الانفرادية لفترة لا يفعل شيئًا سوى أن يتنقل بأفكاره من جاكلين وحبه لها إلى خوفه على حسن وعلى نفسه.

وبعد مرور شهور على سجنه أتاه المترجم الجديد برفقة أحد موظفي السجن، وأخبره أنه تم تعيين جلسة له، وأنهم سيقومون بتعيين محامٍ له على نفقة الدولة الفرنسية.

لم يكن مجاهد مسرورًا بهذا الخبر، لكنه طلب من المترجم أن يبلغهم أنه يريد أن يلتقي بمحاميه قبل الموعد المحدد للجلسة، فأبلغه موظف السجن عبر المترجم أنهم سيسمحون له بذلك طبعًا.

في هذه الأثناء، تم فتح تحقيق رسمي في قضية حسن من قبل إدارة السجن وتم استدعاؤه للتحقيق معه أمام اللجنة المختصة والتي رأت في نهاية جلساتها أن ما جرى يستوجب إحالة الأمر إلى القضاء، عبر النائب العام.

فتم الادعاء على حسن بتهمة إفشاء أسرار مهنية ومساعدة مجرم متهم بالإرهاب خلافًا للقانون وتم إبلاغه بذلك وأنهم سيعلمونه لاحقًا بموعد جلسة لمحاكمته.

كان حسن هادئًا معظم الوقت، موكلاً ربه وتاركًا له أمره وهو لم يمل من تكرار

مقولته التي تعلمها من والديه بأن "من اتكل على ربه لن يخيب وأنَّ السعي بالخير لا يجلب إلا الخير".

في هذه الأثناء، كانت جاكلين غارقة في دراستها لا تفارق كتبها تحضر بأقصى طاقتها لتنهي دراستها الجامعية إلا أنها رغم ذلك كانت تفكر دومًا بمجاهد، فتارة تسأل نفسها إذا ما كان يأكل بشكلٍ جيد وطورًا تسأل نفسها إذا ما كان ينام بشكل مريح؟

وفي أحد الأيام، مرَّ حسن على جاكلين فلم يجدها، فطرق باب شقة العمة ماري التي أخبرته أنها في الجامعة، فانتظرها في شقة العمة وأخبرهما ما كان قد حصل معه، وأنه تم توقفيه عن العمل، ورفع الأمر إلى القضاء ليبت في القضية.

كان هذا اليوم آخر يوم من أيام الامتحانات التي قدمتها جاكلين، فأخبرته حينها أنها لن تتخلى عنه وستحاول بشتى الطرق مساعدته والوقوف معه في قضيته، فاقترحت عليه أن يذهب معها إلى محامٍ تعرفه، وهو في ذات الوقت أستاذها في الجامعة، فوافق حسن على اقتراحها.

في اليوم التالي، اتصلت جاكلين بالمحامي ريتشارد ورتبت معه موعدًا، وأعلمت المترجم حسن بالموعد المحدد.

وفي الموعد المذكور، ذهبت جاكلين برفقة حسن إلى مكتب المحامي، وأطلعاه على قضيته، فأخبرهما المحامي أنه قد يتعرض للسجن، ولكنه سيحاول أن يساعده في الحصول على مدة مخففة.

قام حسن بتوكيل ريتشارد بقضيته، أما هو فقد أبلغ المسئولين في المحكمة وكالته عن حسن التي أرسلت له ملف الدعوى بشكلٍ رسمي.

في هذه الأثناء، كان مجاهد هو الآخر قد التقى بمحاميه، وأطلع على كافة تفاصيل القضية وعلى كامل وقائعها. فأخبره محاميه أنه سيحاول قدر الإمكان مساعدته، وأنه سيحاول أن يخرج القضية من نطاق قضايا الإرهاب والدفع نحو اعتبار قضيته مجرد قضية عادية.

وما إن أنهى حديثه معه حتى طلب منه مجاهد أن يقدم طلب إلى المحكمة تسمح بموجبه لبعض معارفه بحضور القضية، وقام بإبلاغه بالأسماء التي يرغب أن تتواجد معه.

قام محامي مجاهد برفع الطلب إلى المحكمة التي وافقت على ذلك وقام هو بإبلاغ كل من جاكلين، العمة ماري وحسن بموافقة المحكمة على حضورهم. وفي الموعد المحدد للجلسة، حضرت كل من جاكلين والعمة ماري وحسن إلى غرفة المحكمة وما إن رأوا مجاهدًا خلف القضبان حتى هرعت إليه جاكلين وقالت له:

- لا تخف، فأنا هنا معك ولن أتخلى عنك، وسأنتظرك إلى نهاية العمر.

كان هذا الكلام بمثابة الدواء الذي يبحث عنه مجاهد ليخفف من آلامه وخوفه من حكم المحكمة، وما إن تم النداء على افتتاح الجلسة حتى عادت جاكلين وجلست مكانها.

كانت هيئة المحكمة مكونة من ثلاثة قضاة، وقام المدعي العام بالادعاء على مجاهد بتهمة الإرهاب وتكسير آليات والاعتداء على الأملاك الخاصة والعامة. فقام محاميه بتقديم مرافعته، وطلب من المحكمة استجواب الشهود. قامت المحكمة باستدعاء الشهود، وقام محاميه بالاستماع إلى إفادة الشهود واحدًا تلو الآخر إلى أن تم استجواب معتز.

فبعد أن حلف اليمين سأله المحامي بما رآه وما أن أنهى معتز حديثه حتى أعاد المحامي سؤاله إذا ما كان قد سمع مجاهد يصرخ الله أكبر وهو يقوم بجريمته.

قال معتز حينها:

- لا أعلم، قد أكون سمعته يقول الله أكبر وهو يحمل آلة حديدية بيده ويقوم بتحطيم الآليات والاعتداء على الممتلكات العامة. ثم أضاف قائلاً: فضلاً على ذلك فإنه كان ينتمي إلى تنظيم أفواج المقاومة الإسلامية في جمهورية النار.

وما إن سمع مجاهد ذلك حتى قال:

- كاذب، والله العظيم إنه يكذب.

حينئذٍ سأله المحامي:

- وهل تمتلك أدلة على ذلك؟ هل تمتلك صور؟ هل هناك شخص يؤكد كلامك ويشهد معك أنه كان ينتمي إلى تنظيم أفواج المقاومة الإسلامية؟

تعرق معتز وأصابته حالة من الجنون وراح يقول:

- نعم أنا رأيته بعيني كان يقاتل مع أفواج المقاومة الإسلامية.

طلب محامي مجاهد من المحكمة ألا تأخذ كلام معتز على محمل الجد، وادعى عليه بتهمة الشهادة الكاذبة.

طلبت المحكمة من معتز الجلوس، فجلس.

في هذه الأثناء، طلب مجاهد من المحكمة الإذن بالكلام فأذنت له.

توجه مجاهد إلى المحكمة قائلاً:

- يا حضرات القضاة إن ملفي بالكامل لدى السلطات الفرنسية، وأنا هربت من تنظيم أفواج المقاومة الإسلامية عندما دخلوا مدينتي لأنهم أرادوا قتلي، وأضاف قائلاً:

وحتى لو كنت أصرخ وأقول الله أكبر أثناء ارتكابي لجريمتي، فهل هذا دليل كاف على أنني إرهابي؟ ما هو الرابط بين الإرهاب وبين كلمة الله أكبر؟ فهل كل شخص يقول الله أكبر هو إرهابي؟ أليس المسيحي واليهودي مثله مثل المسلم يؤمن دومًا بأن الله أكبر من كل شيء؟

يا حضرات القضاة، سأقول لكم بصراحة، لا يسمى دينًا ذلك الدين الذي يحث على القتل والإرهاب...كل الأديان السماوية تُحرِّم الجرائم وتُحرِّم الإرهاب، فإذا كنا كمسلمين نحرم أصغر الجرائم كالسرقة، فكيف يمكن لنا أن ننادي بترهيب الناس وبث الرعب في قلوبهم.. فضلاً عن ذلك، ما هو تعريف الإرهاب؟ ولماذا يتم ربطه بالدين الإسلامي؟

لو تعمقتم قليلاً في ديننا الإسلامي لرأيتم أن أول ما يحث عليه هذا الدين هو الرحمة والمودة وبث الأمان في نفوس الناس بغض النظر عن جنسهم، ويحرم القتل والسرقة وحتى قطع الأشجار، فكيف يمكن لإنسان عاقل أن يقوم بربط الإرهاب بدين يحمل أول ما يحمله هو التسامح بين الناس. كما أود أن أضيف لحضرتكم أن ما يتلفظ به معتز ليس سوى نية منه بالانتقام مني فقط لأنني أؤمن برأي السياسي يخالف رأيه، فما بيني وبينه ليس سوى خلاف في الرأي... فهو من أنصار النظام وأنا كنت قد التحقت بالثورة المناهضة لفكرهم.

لا أعلم لما يحقد بعضنا على بعض لمجرد أن الآخر يحمل فكرًا لا يتوائم مع أفكاره؟

أنا أعترف أني أخطأت وقمت بتحطيم الآليات والاعتداء على الممتلكات العامة، لكن كان هذا تحت تأثير المخدر، المخدر الذي أعطاني إياه معتز.

ثم نظر إلى القضاة وقال:

- أنا ما زلت في سن الشباب، وأنا لا أطلب من حضراتكم شيئًا سوى أن تأخذوني بعين الرحمة، وألّا ألقى الظلم مرة أخرى على أيديكم... فأنا قد هربت من الظلم في وطني ولا أريد أن أظلم هنا مرة أخرى.

أنهى مجاهد حديثه وشكرهم وطلب منهم منحه أوسع الأسباب التخفيفية.

وما إن انتهى محامي مجاهد من طلباته بالحكم المخفف حتى رفعت الجلسة للمداولة والنطق بالحكم.

غاب أعضاء المحكمة قليلاً وعادوا وأصدروا حكمهم بتبرئة مجاهد من تهمة الإرهاب، والحكم عليه بالسجن ثلاث سنوات بتهمة تحطيم الآليات والاعتداء على الممتلكات العامة.

وما إن أنهت المحكمة حكمها بقضية مجاهد حتى حكمت على معتز بعقوبة ثلاث سنوات بجرم الشهادة الكاذبة لتضارب أقواله، وطلبت إلقاء القبض عليه ليتم إيداعه في السجن.

رفعت المحكمة الجلسة فقامت جاكلين من مكانها ووعدت مجاهد بألّا تتخلى عنه وأنها ستنتظره إلى أن يخرج من سجنه.

هون كلام جاكلين عليه، وتمت إعادته إلى السجن مرة أخرى ليتم ترحيله من هناك إلى سجن آخر لينفذ عقوبته فيه.

في اليوم التالي، تم ترحيله مع مساجين آخرين إلى سجن لاسانتي، وهو سجن فرنسي موجود في حي الشرقي من مونبارناس، في الدائرة رقم 14 من باريس، في شارع لاسانتي.

ذاكرة هذا السجن مليئة بأسماء المظلومين والمقهورين، ومن بينهم الرئيس الجزائري الأسبق أحمد بن بلة الذي يعد واحدًا من القيادات التاريخية للثورة الجزائرية، والذي كان قد سجن مع رفاقه في هذا السجن عام١٩٥٦.

دخل مجاهد السجن يتلفت شمالاً ويمينًا ، ينظر إلى جدران المبنى الشاهقة وهو في حالة من الكآبة والتحسر على حياته.

قامت السلطات المسؤولة عن السجن بتقديم سرير له في زنزانة تضم عددًا من المساجين لا يتجاوزون الخمسة أشخاص.

أمضى أيامه الاولى بالتعرف على السجناء العرب المقيمين معه في نفس الزنزانة، فراح يستمع إلى قضاياهم المختلفة، وما هي إلا أيام حتى أُبلغ من إدارة السجن أن جاكلين والعمة ماري تريدان زيارته، فسُر عندما سمع ذلك. وفي اليوم المحدد للزيارة التقى بجاكلين والعمة ماري، وأبلغته أنها قد أنهت دراستها وتخرجت من الجامعة، فسُر مجاهد عندما سمع ذلك وقدم التهنئة لحبيبته.
طلبت منه أن يصبر وأن يقوم باستثمار وقته في السجن، ونصحته بأن يقوم بتقديم طلب للسلطات المختصة ليلتحق بمدرسة تعلم اللغة الفرنسية. أعجب بفكرتها، ووعدها بفعل ذلك، ثم سألها عن حسن فقامت العمة ماري بإخباره بما قد حدث معه، فراح يلوم نفسه، ويعتبر نفسه أنه قد أجرم بحقه ودمر حياته.

هدأته جاكلين وأخبرته أنها ذهبت معه إلى أستاذها الجامعي المحامي ريتشارد ليتولى القضية بنفسه، ووعده أنه سيقوم بمساعدته.

قال مجاهد حينها:

- حتى وإن ساعده، فهو قد فصل من عمله بسببي وضميري الآن يؤلمني عليه أكثر من ألمي على نفسي.

حاولت العمة ماري أن تهدأ من روعه إلا أن مجاهد كان يحمل في قلبه الكثير من الحزن والندم عما سببه لحسن، وما إن انتهى وقت الزيارة فعاد إلى زنزانته حتى سأل أحد السجناء العرب المسجونين معه حول كيفية تقديم طلب للالتحاق بمدرسة تعلم اللغة الفرنسية.

أخبره صديقه المسجون بأنه يتوجب عليه تقديم هذا الطلب إلى المرشد الاجتماعي المسؤول عنه في السجن.

وفي اليوم التالي، عندما حضر المرشد الاجتماعي أخبره بنيته الالتحاق بمدرسة تعليم اللغة الفرنسية، عبر ترجمة قام بها صديقه المسجون معه في الزنزانة.

رحب المرشد الاجتماعي بقراره، ووعده بأنه سوف يقوم بالإجراءات اللازمة لذلك.

في هذه الأثناء، كان حسن قد تبلغ بموعد جلسته، فقام بإعلام جاكلين والعمة ماري اللتين وعدتاه بأنهما لن تتخليا عنه.

وفي الجلسة حضر كل من حسن برفقة جاكلين والعمة ماري.

وبعد مرافعة المحامي ريتشارد أحاط المحكمة بظروف القضية والظروف التي قام بها حسن بخرق القانون، حكمت المحكمة عليه بالسجن سنة واحدة. وعد المحامي ريتشارد حسن باستئناف الحكم أمام محكمة الاستئناف إلا أنه أخبره بأنه راض عن الحكم، وأوصاه بعدم استئنافه.

تم ترحيل حسن هو الآخر إلى سجن لاسنتي لينفذ عقوبته التي قضت بها المحكمة هناك، لم يكن هذا السجن غريبًا على حسن فهو قد عمل فيه لفترة

من الزمن يعرفه زنزانةً زنزانة، ومبنىً مبنى، وطابقًا طابقا، وما إن تقدم حسن ليتم إعلامه بمكان سريره وزنزانته حتى تفاجأ المسؤولون هناك بوجوده، فهم يعرفونه شخصيًا ويعرفون أخلاقه وأنه من أكثر الناس التزامًا بالقوانين. فسألهم حسن:

- لم تفاجأتم هكذا؟ ألسنا بشرًا وقد نخطئ؟ وهل كل المساجين هنا ذو أخلاق سيئة؟ ألا يوجد بينهم من هو ذو أخلاق حميدة، ولكنه أخطأ؟ الخطأ قد يرتكبه صالح وقد يرتكبه طالح، والقانون لا يفكر بمن كان صالحًا أو كان طالحًا، وإنما يعاقب الجميع بغض النظر عن ماضيه أو حياته.

قد تكون هذه المساواة التي يتحدثون عنها لكنها لا ترتقي إلى مرتبة العدل، فالعدل لله وحده.

بعد ذلك أكمل طريقه إلى زنزانته، التقى هناك ببعض السجناء الذين يعرفهم شخصيًا فقابلوه بالترحاب، وكأنه في زيارة لهم، لم يصدقوا للوهلة الأولى أنه أتى هذه المرة كسجين وليس كمترجم يعمل في السجن، فراحوا يسألونه عند سبب سجنه، فأخبرهم بما حدث معه.

لم يتفاجؤوا جميعًا بفعل حسن، فهم يعرفون كم هو متعاون مع السجناء ومساعد لهم في كل ما يحتاجونه.

سألهم إذا كانوا قد التقوا بمجاهد في السجن، فأخبره أحدهم أنه يقطن في المبنى "ب " من السجن - وكانوا هم يقطنون في المبنى ج

وبعد ذلك جلس في سريره، يفكر في حياته قبل أن يسجن فقال لنفسه:

"لم يختلف شيء، فقد كنتُ مسجونًا أيضًا أمضي معظم وقتي في السجن بين السجناء ثم أعود إلى شقتي لأسجن نفسي هناك بين أربعة جدران. ثم أردف قائلاً: أفضل من أن أعود واجلس وحدي بين الجدران الأربعة، فأنا هنا

أعيش بين السجناء أعيش عيشتهم، أفكر بما يفكرون، أستكشف نمطًا جديدًا من الحياة لم أعرفه من قبل، وهو هل صحيح أن الحرية ممكن أن تسلب من الإنسان أم أن هذا وهم يوهم الإنسان نفسه به؟"

راح يتحدث مع زملائه في السجن، يسألهم كيف يمضون وقتهم في السجن، فيجيبه أحدهم بأنه يتعلم حرفة النجارة، وآخر يخبره أنه يتعلم اللغة الفرنسية وثالث يمضي وقته بقراءة بعض الكتب التي يقدمها له السجن ورابع يفرغ وقته للرياضة.

شرد حسن قليلاً ثم عاد وسألهم:

- ما الفارق بين حياتكم في السجن وحياتكم خارجه؟

راح السجناء يفكرون، فمنهم من يقول إنه في الخارج هناك متسع من الوقت لتمضيته مع عائلته، وآخر يقول إن الحياة داخل السجن هي حياة روتينية نصحو في وقت معين ونأكل في وقت معين وننام في وقت معين، كما أن حرية الحركة والتنقل مفقودة وهذا قد يسبب ضغطًا نفسيًا على السجناء.

ثم سأل آخر وقال له:

- وأنت؟

رد الأخير ببرود وقال له:

- يا أستاذ حسن أنا لا أرى فارقًا كبيرًا بين حياتي في الخارج وحياتي هنا في السجن، فأنا أفعل تقريبًا ما كنت أفعله في الخارج مع فارق وحيد؛ هو أن السلطات هنا هي من تقوم لي بشراء احتياجاتي بدلًا من أن أقوم أنا بشرائها. كنت في الخارج أصحو باكرًا أذهب إلى عملي، ثم أعود لأسجن نفسي داخل شقتي، صدقني يا أستاذ حسن؛ أصعب جريمة قد يرتكبها الإنسان هي الجريمة التي يرتكبها بحق نفسه، فيسجن نفسه بنفسه، الكثير منا يعيش

داخل سِجن حدوده الكرة الأرضية كاملة، لا يفعل شيئًا سوى أن يكرر كل يوم يومه السابق وكأنه في تكرار ذلك سوف يتقدم ويصبح أفضل، يحرم نفسه من متع الحياة والتأمل في الطبيعة والالتقاء بالأصدقاء بحجة أن ليس لديه متسع من الوقت.

لا يفعل شيئًا سوى أن يركض وراء لقمة عيشه فيصبح أشبه بالحيوانات.

هنا سأله حسن:

- لِمَ كل هذا؟، أليس لديك عائلة، أصدقاء أو معارف يمكنك تمضية وقتك معهم؟

رد عليه قائلاً:

- أنا أتيت إلى هنا لاجئًا أعرف بعض الأشخاص، ولكن كل منهم منهمك بعمله وليس لديه متسع من الوقت مثلي، لا يفعلون شيئًا سوى العمل والعودة إلى منازلهم ليبيتوا ليلتهم، ثم يعودون إلى عملهم في صباح اليوم التالي.

صفن حسن قليلاً، وراح يتذكر نفسه ويقول في صدره:

"نعم، أنا منهم، كنت سجان نفسي، حبست روحي ن داخل حياة رتيبة، لا أفعل بها شيئًا سوى تكرار تفاصيل كل يوم: العمل ثم العودة إلى شقتي لقضاء بقية يومي فيها...

أيّ معنى لهذه الحياة إذا كنا نعيش اليوم بنسخة الأمس؟ لا نفعل شيئًا جديدًا لمكافأة أنفسنا على إنجازاتنا في كل يوم نعيشه؟

نحن بحاجة دائمة إلى التغيير وكسر القيود التي فرضتها علينا أفكارنا التقليدية، إلى التجدّد، إلى خلق معنى لكل يوم نعيشه وإلا كنا نرتكب جريمة بحق أنفسنا، وهي أن نسجن أنفسنا داخل حياة وضعنا نحن حدود السجن فيها.

نعم، مت يرضى بحياة روتينية ما هو إلا سجين، شأنه شأن السجناء خلف القضبان، حتى لو ظن أنه حرّ بتنقله في الأرض كما يشاء. فالسجن الحقيقي لأي إنسان هو سجن العقل والروح، لا سجن الجسد...

جلس حسن على سريره يفكر بكل حياته السابقة، نادمًا على كل لحظة لم يستمع فيها من حياته، واعدًا نفسه أنه لن يقوم بعد اليوم بتكرار حياته السابقة، وأن سيسعى بكل السبل لتدليل نفسه في كل يوم يعيشه. خلد إلى النوم، واستيقظ وقت صلاة الفجر فصلى وحمد ربه ودعاه، ثم عاد ونام، وفي الصباح وأثناء مرور المرشد الاجتماعي عليه طلب منه أن ينقله إلى المبنى "ب " ليكون بالقرب من مجاهد، وعده المرشد الاجتماعي بأنه سيحاول أن يقدم طلبه إلى السلطات المختصة المسؤولة عن إعادة توزيع السجناء داخل السجن، وأنه سيكتب لهم توصية بذلك.

في نفس الوقت، كان مجاهد قد حصل على موافقة من السلطات المختصة داخل السجن لالتحاقه بمدرسة تعلم اللغة الفرنسية، فكانت فرحته لا تتسع. وضع مجاهد لنفسه خطة أنه سيقوم باستغلال وقته بالكامل داخل السجن لتعلم اللغة الفرنسية والتعمق بها، وما إن يخرج من سجنه سوف يقوم بالالتحاق بالجامعة وإكمال دراسته الحقوقية.

وبعد مرور أسبوع جاء المرشد الاجتماعي إلى حسن، وأخبره أن السلطات وافقت على طلبه بنقله إلى المبنى "ب " ، وأنه سيمكث في نفس الزنزانة التي يمكث فيها مجاهد نظرًا لوجود سرير فارغ في هذه الزنزانة. سر بما سمع، فهو سيلتقي بذلك الشاب الذي ربطته به وبحبيبته صداقة متينة لعل ذلك قد يخفف عنه آلام حياته في السجن، ويحوله سجنه إلى حياة.

كثيرون هم الأصدقاء الذين يكون لهم بصمة في حياتنا، فهونون علينا متاعب الحياة، ويحولون حياتنا من جحيم إلى نعيم لمجرد وجودهم بقربنا.
في اليوم التالي، جمع حسن أمتعته وتوجه إلى المبنى "ب " برفقة أحد السجانين، ودخل الزنزانة لكنه لم يجد مجاهدًا فيها.

سأل أحد السجناء عنه، فأخبره هذا السجين أن مجاهد في المدرسة وأنه سيعود بعد الضهر.

سر حسن بما سمعه، وجلس على سريره ينتظره إلى أن يعود، وما إن عاد مجاهد من مدرسته الكائنة داخل السجن ودخل زنزانته ورأى حسن حتى عانقه معانقة الأخوة وراح يبكي ويقول:

- أنا السبب في كل ما حدث لك، أنت هنا بسببي، لا أعلم إذا كان اعتذاري لك سيكفي. ثم أردف قائلاً:

في كثير من الأوقات لا يكون للاعتذار أي فائدة، فما قيمته إذا ما كنا غير قادرين على إعادة الأمور إلى سابقتها.

ضحك حسن وقال له:

- دعك من كل هذا، فهذا قدر، قدري كان أن أسجن سواء كنت أنت السبب أو كان غيرك.

فدعك من هذا، ولا تعتذر فلم آتِ إلى هنا طالبًا الاعتذار، وإنما أتيت لنهون على بعضنا الطريق، لنقوم بتحويل سجننا إلى حياة نعيشها كما نريدها أن تكون.
نظر إليه مجاهد وقال له:

- نعم الأخ الكبير أنت، ونعم الصديق.

طلب منه حسن أن يحدثه عن كيفية تمضية وقته داخل السجن، فأخبره أنه التحق حديثًا بمدرسة اللغة وأنه يمضي وقته في المدرسة وتحضير دروسه بعد أن يعود إلى الزنزانة.

وعد حسن مجاهد أنه سيقوم بمساعدته وتعلميه اللغة الفرنسية طالما أنه موجود معه في نفس الزنزانة، فكانت الأيام تمر بسرعة، ومجاهد يداوم في مدرسته ويعود ليناقش دروسه مع حسن كل يوم في زنزانته.

وفي إحدى المرات اقترح على حسن أن يقوم بتدريس اللغة الفرنسية ليس له فقط؛ وإنما للسجناء الذين يقيمون معهم، الذين لا يتقنون اللغة الفرنسية. أعجب حسن بفكرة مجاهد، وراح يعطي الدروس لأصدقائه السجناء داخل الزنزانة.

وفي إحدى المرات وأثناء مرور المرشد الاجتماعي رأى أن حسن يقوم بتدريس السجناء اللغة الفرنسية، فحمل هذا الخبر إلى الإدارة التي سرت بما سمعت، وبعد فترة من الزمن أبلغ حسن بضرورة حضوره إلى مكتب أحد مسؤولي السجن.

تفاجأ حينها من هذا الطلب إلا أنه كان ملزمًا بتلبية الدعوة، وما أن التقى بالمسؤول في مكتبه حتى عرض عليه أن يقوم بالالتحاق بالمدرسة كمدرس لتعليم اللغة الفرنسية، وافق حسن على طلب المسؤول مباشرة وأصبح معلماً للغة الفرنسية للسجناء أصدقاءه وكان من بينهم مجاهد. انقلبت حياته، فبدأ يشعر كأنه يعيش خارج السجن يدرس للسجناء في النهار ويعود لزنزانته بعد الظهر يتبادل الأحاديث مع مجاهد.

وفي إحدى المرات وهم يشاهدون التلفاز مرت بعض الأخبار التي تتحدث عن أوضاع الوطن العربي، فسأله مجاهد قائلاً:

- هل ما زال الغزاة يختلفون على تقسيم ثرواتنا؟ وهل ما زالوا يمارسون أعمالهم الرذيلة بحق شعوبنا؟

رد حسن عن سؤاله وقال له:

- من تقصد بالغزاة؟

فرد عليه قائلاً:

- إن كل من هو غير عربي هو من الغزاة الذين يسرقون وينهبون ثرواتنا الطبيعية والنفطية، كل من غير عربي هو محتل لهذه الأرض، ينعمون بخيراتنا، ونحن لا نجد كسرة خبز لنأكلها، يعينون كلابهم حكامًا علينا ليتمكنوا من السيطرة على مواردنا تمهيدًا لسرقتها.

هنا سأله حسن وقال له:

- لم التحقت بالثورة رغم معرفتك أنكم كنتم تعيشون بنعيم فيها؟

رد مجاهد:

ما هو النعيم؟ هل النعيم هو أن نأكل ونشرب؟ النعيم يا صديقي هو أن تعيش حرًا بكرامة لا تخاف أحدًا سوى القانون، أن يكون لك نصيب من خيرات وطنك وليس أن يرموا لك الفتات ويقولون لك هذا نصيبك.

أن تأخذ حقك الكامل بالقانون وليس صدقة من أحدهم.

وهو أن توزع ثروات البلد على المواطنين...

النعيم هو أن تستطيع أن تقول للباطل باطل بغض النظر عمّن قام به.

لم نكن نعيش بوطن... كنا نعيش بمزرعة ونحن فيها الخراف... يطعموننا متى شاؤوا ويذبحوننا حين يشاؤون دون تردد. وطن كهذا لا يحترم مواطنيه، والوطن الذي لا يحترم أبناءه لا يستحق الاحترام ولا يستحق أن نسميه وطن.

أيُّ وطن هذا الذي فيه تحقير الحاكم جريمة، وتحقير المواطن ولاء ووطنية؟ أيُّ وطن هذا الذي يُقتل فيه الأحرار على أيدي من نطالب لهم بالحرية؟

ما أقسى أن يموت المرء على يد من يناضل من أجله.

وما أمرّ أن تعيش في وهم كبير، يقنعوننا بأنهم يسعون لتحريرالقدس، وهم في الحقيقة عاجزون عن تحرير شعوبهم من الجهل، الفقر، والجوع.

يجوّعون شعوبهم، يسرقون حقوقهم، يظلمونهم باسم القضايا الكبرى، ثم يبررون كل ذلك بأنه في سبيل تحرير الأقصى وكأن الله يرضى بذلك!

ألم يعلم هؤلاء أن الإنسان في ميزان الله أغلى من كل المقدسات؟

لا نسمع منهم إلا الكذب، يكذبون ثم يكتبون لمشايخهم خطبًا جاهزة ليضفوا على أكاذيبهم غطاءً دينيًا. حتى أولئك يحظر عليهم الحديث في السياسة، فاختُزل دورهم في هداية الناس وتعليمهم أركان الإسلام من صلاة وصوم، وكأننا لا نفقه ذلك. فبدلاً من أن يردعوا الحكام عن الظلم، يهاجمون الفقراء الذين يطالبون بأبسط حقوقهم وهو العيش بكرامة وحرية.

صمت حسن قليلاً وسأله عن أسباب إخفاق الثورة، فضحك مجاهد بشكل جنوني ثم قال له:

- وهل تتوقع من شعبٍ واحد أعزل أن ينتصر على العالم بأكمله؟

تفاجأ حسن من كلامه فقال له:

- ماذا تقصد؟

رد عليه:

- نحن لم نكن نحارب نظامنا فقط، بل كنا نحارب العالم بأسره. فقد رأيت بأم عيني جيوشًا تتدفق للدفاع عن النظام الحاكم، ودولاً تبيع السلاح لنا

ولهم على حد سواء كي نقتل بعضنا بعضًا... رأيت المنافقين، الجبناء، والطائفيين يتكاتفون ويخذلون الحق ويقفون مع الباطل، لا لشيء سوى لأن لهم مصلحة في استمراره.

هنا سأله حسن:

- من تقصد بالجبناء والمنافقين؟

فرد قائلاً:

- الجبان هو من يصمت أمام الباطل ولا يعترض عليه، ويخذل الحق ولا ينصره، يعيش بلا موقف، لا يهتم إلا بلقمة عيشه- يأكل ويشرب كالحيوان- لا يعبأ بما يدور حوله، وكأنه ليس من هذا الوطن.، أما المنافق، فهو أخطر، يظهر الولاء للحق ساعة وينكر وجوده إذا ما تعارض مع مصلحته. يدعي نصرة الحق وهو من أتباع الباطل في باطنه.

كيف يطلب هؤلاء من الشعوب أن تنصرهم، وهم كانوا من الأوائل الذين خذلواالحق ووقفوا في صف الباطل؟

أما الطائفيون فهم أولئك الذين غرسوا الكراهية في قلوب أتباعهم، فراحوا يبثون سمومهم الدينية في نفوسهم ويحرضونهم على الطوائف الأخرى، وروّجوا لأكاذيب مفادها أن المسلمين يسعون للإستئثار بحكم البلد والسيطرة عليه، وأنهم يخططون لتهجير المسيحيين من ديارهم وسلب أراضيهم. بل لم يكتفوا بذلك، فذهبوا إلى تحريض المذاهب في داخل الطائفة الواحدة ضد بعضها البعض، فصاركل طرف يعتبر أن هذه الثورات تهديدًا مباشرًا له، وأن الهدف منها هو القضاء على نفوذه وليس الإصلاح كما يدعي أصحابها.

لا أدري كيف يفكر هؤلاء!

فالغاية من أي ثورة حقيقية هي ترسيخ مفهوم الوطنية، وتعزيز الانتماء الصادق للأرض وللوطن، لا لطائفة أو حزب أو مذهب. فهي تقوم لاستعادة خيرات البلد من كل نظم فاسد، أيًّا كانت خلفيته الطائفية أو المذهبية، لا لاستبدال فاسد بفاسد آخر من جماعتنا أو مذهبنا.

يا عزيزي، كل من سرق خيرات الوطن وظلم شعبه فهو ظالم، مهما كان الدين المدون على هويته الشخصية، ما دام لا يحمله في قلبه ويطبقه في سلوكه. إن كل شخص ظلم، وسرق، ونهب؛ دينه بريءٌ منه. ليس هناك دين يبرر القتل أوالسرقة أوالنهب أوالظلم. هؤلاء لا يحكمون بعقول وطنية يديرون الأوطان بعقلية تابعةً لأنظمةٍ ودولٍ أجنبية، يقدّمون خيرات شعوبهم ليحموا عروشهم. حكامُنا عملاء لا يربطهم بالوطن سوى جنسيتهم.

كل الدول العربية اليوم تعاني من ما يسمى ب"الاحتلال الناعم" أو "الاحتلال بالوكالة" وهو احتلال ليس احتلال بالجيوش والغزوات، بل عبر رجال يحملون جنسياتنا ويتصرفون كأدوات لقوى خارجية فينفذون أجنداتها الموضوعة وسياساتها المرسومة . لقد غادر الإستعمار أراضينا وحل محله الإستحمار، أي أنه خلف وراءه من يحكمنا بإسمه... فيقدم له ثرواتنا، ويسلبنا حقوقنا، ويحرف ثقافتنا من دون أن يطلق رصاصة واحدة من بندقيته.

هل تريد مني يا حسن أن أكمل؟

هل أنت كإنسان عاقل تتوقع منا أن ننتصر في ثورة كهذه شعبها منقسم. على نفسه، يقدم طائفته على وطنه، ويقاتل شقيقه لأنه لا ينتمي لدينه أو مذهبه...

ثم أكمل قائلاً:

- لا يمكن لثورة أن تنجح في أيّ بقعةٍ من هذا العالم ما لم يكن الولاء للوطن أولاً وأخيرًا.

لكن المؤسف أن شعوبنا لم تعرف يومًا هذا المعنى، فهم قد احتموا بطوائفهم، بمذاهبهم، بأحزابهم، وتخلّوا عن فكرة الوطن. الانتماء لديهم ليس للوطن، بل للطائفة وزعيمها.

سكت حسن قليلاً وعاد وسأله قائلاً:

- ما الذي دفعكم إلى الانتقال من الثورة السلمية إلى الثورة المسلحة؟

فجاء رده:

- سأقول لك الحقيقة يا حسن، أتعتقد أنك تستطيع أن تحارب نظامًا ظالمًا يقتل، ويجزر بشعبه بالكلمة؟

مهما كانت الكلمة محقة فإنها تعجز أمام سوط القمع، ولا يُجنى منها سوى الموت.

أما الديمقراطية الغربية، فرغم مثاليتها، لا تصلح لتُزرع في أرض لم تُهيأ لها.

تطبيقها يفترض أولاً أن يحترم الجميع- أو على الأقل أكثريتهم- مبدأها كأساس للحكم، وإلا كانت مجرد حبر على ورق.

كما تفترض ديمقراطية حقيقية أن تحترم الأنظمة إرادة الشعوب، وحقهم في التعبير، لا أن تصادره بالقمع والتزييف.

لكن الأهم: أن تكون الشعوب نفسها على قدر كافٍ من الوعي، الثقافة، والإنتماء، حتى يُحسنوا الاختيار.

فمن دون ذلك، تصبح الديمقراطية قشرة بلا جوهر، وحرية بلا مضمون.

لذلك، وبصراحة، أقول إن شعوبنا لا تصلح لتطبيق الديمقراطية، لا لأننا عاجزون بالفطرة، بل لأننا ما زلنا أسرى قيود الطائفة والمذهب والحزب، وولاؤنا لتلك الانتماءات، لا للوطن.

أنا على يقين أنه، حتى لو أسقطنا النظام، فلن نكون قد قطعنا أكثر من خطوة واحدة في طريقٍ طويل.
فالالتحاق بركب الأمم المتقدمة لا يكون فقط بإسقاط المستبد، بل يبدأ أولاً بتثقيف الشعب، وتعزيز انتمائه وولائه للوطن فوق أي انتماء ضيق.
وإن لم نفعل، فسنكون قد استبدلنا نظامًا ظالمًا... بآخر قد يكون أظلم منه.
يمكنني القول يا عزيزي، إن خلافنا لم يكن مع النظام كأشخاص، بل مع طريقة الحكم، مع العقلية التي تدير الحياة وكأنها مجرد طعام وشراب.
لو كانت الحياة كذلك، لما ثرنا، ولما خاطرنا بكل شيء.
الحياة، في جوهرها، هي الحرية... لا أكثر.
ولن يتغير شيء، ما دامت عقلية الشعوب على حالها، ما دامت نظرتهم للحياة ضيقة، لا تتجاوز لقمة العيش.

ثم ابتسم وقال:
دعك من كل هذا الآن... لم تخبرني شيئًا عن نفسك؟

سرح حسن قليلاً وقال:

- نفسي! تركتها هناك، حين كنت شابًا في العراق. أنا ذاك الذي شرب من دجلة والفرات، وحلم بحلم أكبر منه.

وُلدت في بغداد، كبرت فيها، تنفست حاراتها، وحلمت مثل أيّ حرّ بالتحرر من قبضة النظام البعثي. كنتُ معارضًا، هربت...وظننت أني على صواب.. ومع مرور الزمن أدركت كم كنت مخطئًا.

سأله مجاهد قائلاً:

- لِمَ تعتبر أنك كنت مخطئًا؟

فجاء رده:

- انظر إلى ما يجري الآن في العراق...الأمم تتكالب عليه، يتقاسمون خيراته ويجوعون شعبه.

رغم كرهي للنظام السابق، إلا أننا كنا نملك دولة، اسمها العراق.

أما الآن؟ فلا أعلم ما الذي تبقى... لا دولة، لا سيادة، لا كرامة لوطن.

نعم هربت وكسبت نفسي، ولكن خسرت وطنًا، ومن يخسر وطنه يبقى فقيرًا، حتى لو إمتلك كل كنوز الأرض. جئت أبحث عن وطنٍ يُشبهه، فلم أجد له مثيلاً.

أين بغداد؟ لم أعد أعرف شوارعها.

أين أرصفتها؟ لم أعد أميز حجارتها.

أين ساحة الفردوس؟ فلقد اختفى بهاؤها.

أين نخيلها؟ لم يعد أحد يستظل بظلها.

أين نحلاتها؟ جف عسلها وانقطع.

أين بابل؟ فقد شوّه تاريخها.

أين دجلة؟ فقد فاضت دماء الناس في مياهه.

أين شعبها؟ فقد غاب صرت مثقفيها وأخرست الأقلام فيها.

أبحث عنها عبثًا، وأنا أعرف في قرارة نفسي أني لن أجدها كما تعودتها...

قدر مجاهد شعوره، فأحب أن يغير الحديث وسأله عن سبب عدم زواجه.

صمت حسن مرة أخرى ثم قال:

- ما بك تنقلني من جرح إلى آخر؟ -ثم أضاف قائلاً:

لقد كان مستحيلاً عليَّ أن أتزوج بعدها، بغدادية لها سحر خاص أحببتها وتزوجتها، ومن يتزوج بغدادية لا يتزوج بعدها، فمن ذاق طعم العسل لا يتقبل ثغره طعم السكر. آه على جميلات بغداد، خلابات للأنظار، ساحرات الرجال.

ثم أكمل قائلاً: -ستسألني أين هي؟

لقد فارقت الحياة بعد مرضها، واصطحبت روحي معها.

وما إن سمع مجاهد منه أنها توفيت حتى توقف عن سؤال حسن عن أي شيء لكيلا يذكره بآلامه ومآسيه.

في هذه الأثناء، كانت جاكلين قد بدأت تتحضر لمزاولة مهنة المحاماة وبدأت تتدرب لدى أستاذها الجامعي المحامي ريتشارد، فكانت حياتها تنحصر في الذهاب لمكتب المحاماة صباحًا والعودة إلى شقتها بعد الظهر لتتعمق في البحث في الدين الإسلامي.

أعجبت جاكلين بما قرأته عن الدين الإسلامي وما يتضمنه، من تسامح، تراحم، محبة وسلام، وراحت تنظر إلى مجاهد على أنه رسول الإسلام في فرنسا، فتتذكر تصرفاته في كل ما تقرأه عن الإسلام...

نعم، إن كُلًّا منّا هو رسول لديانته ووطنه أينما ذهب، فالدول والشعوب تترجم سلوكنا وتسقطه على ثقافة شعبنا وأخلاقياتنا.

فتصرفاتنا ليست مجرد تصرفات شخصية نقوم بها وإنما هي مرآة لوصفنا ككل دول وشعوب... ها هي جاكلين أحبت دينًا كاملاً واقتنعت به لأنها رأت خيرًا مِنْ مَنْ يمثله... فنحن قد نحب شعبًا بأكمله، دولة بكل ما فيها، دينًا بكل مبادئه لمجرد أننا رأينا الخير من أحد أفراده.

وبعد دراسات معمقة عن الدين الإسلامي اقتنعت جاكلين بهذا الدين، وراحت تفكر بأن تُسلِم لكنها لم تخبر أحدًا بذلك، لم تتوقف جاكلين عند هذا الحد، وإنما بدأت تشرح وتثقف العمة ماري حول هذا الدين وما يتضمنه من أسس ومبادئ، كانت العمة ماري امرأة منفتحة على كافة الأديان فهي لا تنظر للدين نفسه وإنما تنظر للأسس والمبادئ التي يقوم عليها هذا الدين أو ذاك. فهي تقبله أو ترفضه بحسب القيم الذي يفرضها في هذا المجتمع. وفي إحدى المرات سألتها جاكلين عن رأيها في الإسلام، فأخبرتها طالما أنه دين يحث على التسامح، والرحمة والسلام فهو مقبول لدى العقل البشري ولا توجد أيَّة مشكلة في اعتناقه، شأنه شأن كل الأديان السماوية.

وفي إحدى الليالي استيقظت قبيل الفجر لا تدري ما الذي أيقظها، لكن شيئًا في قلبها كان ينبض بنداء غريب، نهضت من سريرها بخطى ثابتة وكان قرارًاها بأنها تسلم، فتحت جهاز الحاسوب وراحت تبحث بلهفة عن كيفية الوضوء، فقد أرادت أن تصلي وأن تقترب إلي الله..

وأثناء قراءتها، وقعت عيناها على أول خطوة كُتبت وهي أن تقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله.

ترددت للحظة، ثم نطقت بها بقلب خاشع وصوتٍ متهدّج، ثم توضأت كما قرأت، وصلت لأول مرة وسجدت لله باكيه تدعوه من أعماقها أن يهدي قلبها، ويفرج كرب مجاهد..

مرت الأيام وفي كل مرة تصلي فيها كانت تشعر فيها بالارتياح، فتعلقت بالصلاة وراحت تصلي كل فرض في وقته، وفي مرة من المرات وأثناء جلوسها مع العمة ماري نهضت من على كرسيها وتوجهت للحمام فتوضأت وفردت رقعة من القماش على الأرض وشرعت تصلي. رأتها العمة ماري وما إن أنهت صلاتها حتى

سألتها عمّا كانت تفعل، فأجابتها بأنها كانت تصلي، وراحت تشرح للعمة ماري عن شعورها بالارتياح بعد كل صلاة تؤديها.

نظرت إليها العمة ماري وقالت:

- يا ابنتي طالما أنك مقتنعة بهذا الدين وتشعرين بالارتياح باعتناقه فهذا خيارك، إلا أن عليك أن تواجهي مجتمعك الذي لا يرحم وأولهم والدتك.

هزت جاكلين رأسها وقالت:

- هذا خيار وأنا أرى فيه الصواب وسأبقى أدافع عنه بوجه الجميع، حتى لو كان بوجه أمي وأبي.

مرت فترة وقررت أن تزور مجاهد في السجن وحدها، وبعد أن اطمأنت على أحواله أخبرته بدون مقدمات أنها أسلمت، فكانت فرحة مجاهد لا تسعه، فنظر إليها وراح يبكي، فسألته عندئذٍ عن سبب بكائه، فقال لها:

- إن إسلامكِ ليس بالأمر السهل، ففيه المشقة لأنكِ ستحاربين مجتمعًا بأكمله وأولهم والديك.

ردت قائلةً:

- وماذا ستفعل أنت؟ ألم تعدني أنك ستحارب معي الدنيا بمن عليها؟

رد مجاهد:

- أنا معك وسأحارب معك حتى الرمق الأخير، ولكن...

هنا أوقفته جاكلين عن الكلام وقالت له:

- إذًا لا يوجد أيّة كلمة بعد ولكن.

صمت مجاهد برهة ثم قال لها:

- رغم أنني بكامل سعادتي إلا أنني عدت للخوف عليكِ.

حينها سألته عن دراسته، فأخبرها أن كل شيء يسري على ما يرام وأنه ينهي المستويات واحدًا تلو الآخر.

سرت بما سمعت وودعته وعادت إلى شقته.

عاد هو الآخر إلى زنزانته متخبط المشاعر لا يدري إذا ما كان يفرح بهذه الخطوة أم من المفترض أن يخاف عليها. رآه حسن شاردًا وحده فسأله عمّا به، فأخبره حينها بأن جاكلين اعتنقت الإسلام.

سُرَّ حسن بما سمع، لكنه فهم تخوفه فحاول أن يهدّئ من روعه ويطمئنه أن الكثير من الناس في باريس اعتنقوا الإسلام ويعيشون حياة طبيعية شأنهم شأن كافة الفرنسيين.

أخبره مجاهد حينها أنه لا يتخوف سوى من والدتها، فهي تكره كل من هو عربي وكل ما له صلة بالإسلام والمسلمين، وأردف قائلاً: إني أخاف من أن أي فعل سوف يزيد من كره وحقد والدتها لي، فما كان من حسن إلّا أن نظر إليه وقال له:

- إذًا لا تأبه لهذا، فمن يكرهك سيبقى يكرهك، حتى لو قدمت له قلبك على طبق من ذهب، فسيبقى يبحث عن سبب يكرهك لأجله سواء كان هذا أو ذاك.

هذا هو حال البشر لا يتغيرون مهما اظهروا عكس ذلك، فهم يعودون لأصلهم أمام أول سوء تفاهم بينك وبينهم.

لا تحاول كثيرًا، إن من لا يحبك من تصرفاتك لن يحبك، حتى لو قلت فيه شعرا. هكذا هم العنصريون والطائفيون؛ لا يتغيرون أبدًا.

جلس مجاهد على سريره يفكر بحبيبته ويستعيد كل الاحداث وكل ما فعلته من أجله، فيتذكر ركضه معها تحت المطر وجلوسه بقربها يتأملان القمر فيحس بغصة كبيرة أحدثتها الذكريات وأخرجت الحنين من المكان الذي يبيت فيه.

حنينُنا لا ينتهي، بل يُغيب بفعل أحداث الحياة ومشاكلها وها نحن نستعيده مع أول لحظة نشعر بها بالفراغ، وما بين تنقله من حادثة إلى أخرى تذكر ما قد جرى بينه وبين والده من حديث حول زواجه من جاكلين، فقرر أن يتحدث إلى والده مرة أخرى رغم أنه لا يريد أن يُعلمهم أنه في السجن خوفًا عليهم. في صباح اليوم التالي، أبلغ الموظف المسؤول عنه برغبته في الاتصال بوالديه فلم يمانع ذلك، فذهب الاثنان وأجرى اتصالًا بوالده.

وبعد أن اطمأنّ على عائلته وإخوته، عاد وأخبر والده بنيته الارتباط بجاكلين، فتشبث هذا الأخير برأيه وأنه يتوجب عليه الارتباط بابنة عمه، أخبره مجاهد حينها أن جاكلين اعتنقت الإسلام، وأنه يرغبها زوجه له، وأن هذا لا يخالف شرع الله في شيء.

وبعد صد ورد انتهت الخمس دقائق المسموح بها له بالاتصال، فانتهت المكالمة بينهما دون تغير في الموقف، وما إن أنهى والده مكالمته معه حتى راح يفكر في الحالة الراهنة، فاستعاد كلام ابنه عندما أخبره أن شرع الله لا يمنع ذلك.

فهز رأسه وقال:

- نعم لقد كان مجاهد على حق، فشرع الله أساسه الرضا والقبول بمن نحب، وينقضه إكراه أنفسنا وأولادنا على الزواج بمن لا يهواه قلبنا وقلبهم. غرق والده في التفكير بين عادات وأعراف ورثناها عن آبائنا وبين شرع الله الذي يفترض أن تكون له أسبقية في التطبيق على العادات التي تربينا وكبرنا عليها.

فراح يفكر بزواج ابنه بابنة عمه رغم تعلق قلبه بواحدة أخرى، هذاالتعلق سيقلب حياتهم جميعًا إلى جحيم لا ينجو منه أحد، فما أصعب أن نتزوج من أحد وقلبنا معلق بأحد آخر، يحضره تفكيرنا إلى حياتنا أمام كل سوء تفاهم يحدث بينا وبين أزواجنا.

أمضى والده يومه وليلته يفكر في حل لمشكلته ومشكلة ابنه.

تارة يفكر في إخبار أخيه وطورًا يفكر في الصبر حال ما يجد الله من عنده مخرجًا لهم.

رغم كل هذا فقد كان واثقًا أن الظلم سيلحق بابنة أخيه في كلتا الحالتين، سواء تزوجت من مجاهد أو فصلت ارتباطها به.

في صباح اليوم التالي، رأته زوجته منفعلًا جدًّا فسألته ما به، فأخبرها. فقالت له عندئذٍ: إن الظلم الحقيقي هو ألّا نتزوج ممن نحبه ويحبنا، الاثنان معًا، فالظلم الذي سيلحق بابنة أخيك في حال زواجها من مجاهد سيكون أكبر من الظلم الذي سيلحق بها إذا ما انفصلت عنه، فكرامتها قد يلحقها الأذى إذا ما زوجناها لشخص قلبه ليس معه.

قاصر كل من فقد قلبه لدى شخص أحبه وأراد الارتباط بشخص آخر. فالزواج ما هو إلا تقديم قلوبنا لبعضنا البعض ومن لا يملك قلبه لا يكون أهلاً للزواج.

فهم والده مقصد زوجته وعزم على إخبار أخيه بالأمر.

وفي المساء التقى بأخيه، فأخبره بأن مجاهد يحب فتاة فرنسية وأنه من الظلم أن نقوم بتزويج ابنتك لرجل لا يحبها، حتى لو كان ابني، فهذا لا يرضاه الله ولا ضمائرنا لأنه سيلحق الأذى بكرامة ابنتك.

لم تكن كلمات والد مجاهد سهلة على قلب شقيقه، بل نزلت عليه كالصاعقة، انفجر صارخًا في وجهه، فقد كانت ابنته ترفض كل من يتقدّم لخطبتها، وكلّها أمل في مجاهد وكان هو يوافقها الرأي ويؤجّل الحديث، أملاً أن يتحقق ما ترجوه.

لكنّه أدرك أخيرًا أن الأمل كاذب، وأن عليه أن يضع حدًا لوهمٍ ينهك قلبها، فقرر أن يخبرها بالحقيقة، لا ليكسرها، بل لينقذها من التعلق بما ليس لها لكيلا يخسر أخاه إلى الأبد..

فما أفظع أن يتعلق قلبنا بما ليس لنا، فنبقى أسرى حتى نتحرر منه هذا إذا استطعنا ذلك.

الأقوياء فقط هم من يستطيعون أن يتحرروا من جلاديهم، ولعل أقوى الجلادين هو القلب لأنه يأسر قلب الآخر وليس جسده.

أخبر عم مجاهد ابنته التي كانت تنتظر أي خبر عن مجاهد، فكان هذا الخبر كصاعقة نزلت عليها وما أقبح هذه الأخبار! فقد يكون خبر موت من نحب جسديًا أقل روعًا على نفوسنا من خبر موته روحيًا بالنسبة لنا، الأجساد قد نستطيع دفنها بردمها تحت حفنة من التراب، لكن ماذا نفعل إذا ما أردنا دفن الأرواح؟...

راح عم مجاهد يحاول أن يقنع ابنته بأن كرامة الإنسان أغلى من حبه، فهي وحدها الملازم الوحيد للحياة التي لا يستطيع المرء أن يحيا بدونها.

كلام في الواقع سهل لكنه صعب التنفيذ، نعم كرامة الإنسان أغلى من أي شيء لكنها أمام الحب تتعطل وتتوقف فتوّلد صراعًا لا يقوى عليه إلا الجبابرة؛ وهم وحدهم القادرين على نسيان حبهم من أجل كرامتهم.

كان الحزن مسيطرًا عليها في كل شيء تفعله لكن لا يوجد أمامها خيار. وما أصعب أن نكون أمام واقع فرض علينا دون أن تكون لنا حرية الخيار، فنتألم، ونحزن لنتأقلم مع واقع فرضه غيرنا علينا.

في هذا الأثناء، كانت الأيام تمر بسرعة ومضى على سجن حسن أكثر من ستة أشهر وهو يقوم بواجبه كمدرس للسجناء على أكمل وجه.

اقترحت اللجنة المسؤولة عن ملفه تبديل عقوبته بأن يعمد إلى إكمال مدة سجنه كمدرس للسجناء له حرية الإقامة في منزله بدلًا من الزنزانة.

أعجب حسن بفكرة اللجنة التي قدمت طلبًا إلى المدعي العام ليوافق على تبديل العقوبة، وبعد أن تفحص المدعي العام أوراق حسن، فرأى ما بها من حسن سلوك وما قدمه من خدمات للسجن، وافق على طلب اللجنة وقرر تبديل عقوبة حسن والإفراج عنه.

جهز حسن أمتعته وودع مجاهد وبقية السجناء وعاد إلى شقته مسرورًا بما فعله داخل السجن.

بقي حسن يتردد بشكل شبه يومي إلى السجن يدرس اللغة الفرنسية للسجناء ويتبادل الأحاديث مع مجاهد ويغادر السجن.

أيام تمر ومجاهد يحسن مستواه في اللغة وجاكلين تزوره من الحين والآخر.

وفي أحد الأيام، التقى مجاهد بمعتز في باحة السجن فتجنبه، إلا أن معتز أصر على الاحتكاك به رغم تهربه منه، وفي كل مرة يلتقيه فيها كان معتز يحاول أن يفتعل مشكلةً معه؛ إلا أن مجاهد كان يتهرب منه بذكائه.

أخبر مجاهد حسن بما حدث معه، فنصحه إخبار السلطات في السجن بذلك، ففعل ما طلبه منه.

قامت السلطات بمراقبة أفعال معتز في السجن لتتحقق من الأمر..

رأى حسن صديقه جالسًا على الدكة شارد الذهن تحدّق عيناه في الفراغ وكأن الدنيا تثقل فوق صدره، اقترب منه بهدوء، جلس إلى جواره وسأله بلطف:

.. ما بك يا مجاهد؟

تنهد مجاهد بعمق، ثم قال بصوتٍ منخفض:

معتز ما زال يفتعل المشاكل، ويحاول الإيقاع بي بأي طريقة..

قال له حسن:

- إن الطبائع لا تتغير في الإنسان مهما تبدلت أحواله، سواء حظي بالنعم أو ساءت أموره، فمن تربى على الحقد يبقى حاقدًا لا يرى النعمة إلا غصّة ومن تربى على الخير يظل طيبًا مهما كسرته الأيام.

رغم أنني أعلم أنك سامحته لأن السماح من شيم الكبار إلا أنني واثق كل الثقة أن الغل ما زال يجري في عروقه لأن طبعه هكذا، هذا هو حال بعض البشر رغم أنهم مخطئون، إلا أنهم يبقون حاقدين مهما قدمنا له. هذا هو حال سيِّئو الظن، نسامحهم فيعتقدون أننا نخافهم، نحبهم فيظنون أننا نتودد لهم لنتقرب منهم، نساعدهم فيتصورون أننا نفعل ذلك لنمنهم، نقف بجانبهم في أزماتهم فيخمنون أن وقوفنا معهم لنشمت بهم، نوعيهم فيحسبون أننا نفعل ذلك لنستعرض أمامهم، نتجنبهم فيرون أننا نتعالى عليهم... مهما فعلنا من أجلهم فلن يتذكروا إلا هفواتنا وينسون كل ما قدمناه لهم.

شرد مجاهد في كلماته ثم هز رأسه أخيرًا وقال:

- نعم لقد صدقت، فهم لا يتغيروا أبدًا، لا أحد يتغير وإن تغير لا يتغير إلى الأبد فهو تغير مؤقت غير دائم، فالكل يعود إلى طباعه الأصلية في لحظات الغضب والضعف بل أحيانًا أمام أول مشكلة يواجهونها أوأول خطأ نخطئه معهم، حتى لو كان غير مقصود.

نفذ حسن عقوبته إلا أن الادارة طلبت منه أن يستمر في عمله معهم كمدرس يعلم اللغة الفرنسية للمساجين، سُرَّ حسن بذلك وبقي يقوم بعمله كالمعتاد يدرس في السجن نهارًا ويعود إلى شقته بعد الانتهاء من عمله.

في هذا الأثناء، عزمت جاكلين على إعلام والديها بأنها قد اعتنقت الدين الإسلامي، فقررت أن تزور والديها في منزلهم.

أحضرت أمتعتها في نهاية الأسبوع وقصدت منزلهم، وبعد التحيات المتبادلة بينهم قامت بإخبار والدها وحده.

رغم عدم رضاه عن فعلتها إلا أنه لم يظهر لها ذلك.

لاحظت جاكلين عدم حماس والدها لقرارها إلا أنها تجاوزت ذلك، وأخبرته بما حدث مع مجاهد.

كان والدها هادئًا لا يفعل شيئًا سوى أن يستمع لكلامها، وبعد أن سمع منها تطرق إلى الحديث عن والدتها فأعلمها أن عليها أن تواجه معركة شرسة مع والدتها.

قالت جاكلين حينها:

- إن هذا خياري وليس لها شأن فيما أفعل، ولكنني سأعلمها فقط من باب العلم.

فنصحها والدها عندئذ ألّا تحتك مع أمها، فهي في النهاية تبقى والدتها التي ربتها... فوعدته جاكلين بذلك.

وفي المساء، طلبت من والدتها الجلوس لتتحدث معها فجلست. وما إن سمعت منها ما تريد إعلامها إياه من اعتناقها الإسلام حتى راحت تصرخ بأعلى صوتها وتتهمها بالجنون.

لم ترد جاكلين على والدتها ودخلت غرفتها وأغلقت الباب عليها.

راحت والدة جاكلين تلوم زوجها على عدم مساندتها فيما تقوله، فقال لها:

- إن هذا قرارها، ونحن نعيش في بلد يقدس الحرية، فلها حرية اعتناق ما تشاء من الأديان.

ردت زوجته عليه وقالت له:

- إنك أنت من قويت عزيمتها.

رد والد جاكلين عليها قائلاً:

- رغم أنني غير راض عمّا فعلته إلا أننا لا يحق لنا تقييد حريتها، فوفقًا لثقافتنا وتربيتنا المتخذة من الحريات أساس لها- فلإبنتنا الحق في الإختيار- فنحن قد ربيناها على الحرية سواء حرية المعتقد أو حرية الاختيار، وعلينا أن نتقبل قرارها سواء أكان ذلك يتوافق مع أهوائنا أم لا.

عندئذٍ قالت له زوجته:

- إن الحرية لا يجوز منحها لدين متطرف.

رد والد جاكلين عليها قائلاً:

- لا يوجد دين متطرف، وإنما هناك تأويلات منحرفة وإستغلال سياسي. الدين الإسلامي شأنه شأن كافة الأديان السماوية الأخرى يحث على كافة المبادئ والقيم الحميدة التي تآخي بين البشر، أما كذبة العنف، والتطرف والإرهاب فكلنا نعلم أنها مبررات تخدم أغراض إستراتيجية للدول الكبرى لتقوم

بالتدخل في شؤون الدول الأخرى تمهيدًا لغزوها عسكريًا أو ثقافيًا... فتعتدي، وتدمر، وتقتل لتنهب ثرواتها وخيراتها وتفرض عليها ثقافتها....كلنا يعلم أن الدين الإسلامي واحدٌ ولا يوجد ما يسمونه "إسلام متطرف" و "إسلام معتدل"، فهذا الأخير ما هو إلا أفكار مصطنعة جوهرها سياسي ثقافي وضعناه نحن وروجنا له ونريد أن نفرضه عليهم بالقوة.

هذا الكلام دفع والدة جاكلين إلى الغضب أكثر، فراحت تصرخ في البيت كالمجنونة حتى خرجت ابنتها من غرفتها مرة أخرى. فقالت لها الأخيرة:

- هل الحريات تحجب عندما يتعلق الأمر بالإسلام؟

لما هذا الإزدواج في المعايير في تطبيق مبادئ الحرية؟...

ها أنتم تقرون حرية المعتقد والحرية في التعري، والمثلية الجنسية والتحويل الجنسي، وعندما يتعلق الأمر بالإسلام تلغون مبدأ الحرية من أساسه، لما هذا الإنتقاء؟...

لما يحرم المسلم من حقه وحريته في ممارسة شعائره الدينية؟ لما يعتبر التعري حرية ويحظر الحجاب؟... لماذا يمنع الآذان؟... ولماذا يحظر تأسيس أحزاب وجمعيات إسلامية؟ لماذا هم وغيرهم ينعم بممارسة حريته كما يشاء؟... ثم بعد ذلك، تتباهون بالعدل والمساواة!

لا أدري أين المساواة والعدل إذا ما حرمنا طائفة كبيرة تعيش بيننا من حقها الذي أقررناه نحن؟...

لا أدري أين الثقافة الفرنسية التي تتطلب منا تقبل الآخر مهما كان دينه ولونه؟

كل هذه الحقوق والحريات تنتهي إذا ما كان من سيمارسها مسلم!

**أليس ما تقولينه يا والدتي عنصرية تجاه الآخرين، فقط لأنهم ينتمون إلى دين غير ديننا وقد مارسنا نحن وحكوماتنا ضده كل أنواع التحريض ووصفناه بالإرهاب؟**

**بعد كل هذا أردفت جاكلين قائلةً:**

**هذا خياري ويتوجب عليكم بمقتضى مفهوم الحرية احترامه ولن أتراجع عنه مهما حصل.**

**صمتت والدتها قليلاً ثم تركتها وغادرت إلى غرفة نومها.**

**دخلت جاكلين هي الأخرى غرفتها، فصلت العشاء ودعت ربها أن يثبتها على دينه وخلدت إلى نومها.**

**في اليوم التالي،**

**جمعت جاكلين أمتعتها وغادرت منزل والديها إلى محطة القطار لتعود من هناك إلى باريس بعد أن أوصلها والدها بسيارته.**

**وفي المحطة ودعها والدها وأوصاها بأن تنتبه لنفسها وتعيد التفكير في موضوع اعتناقها الإسلام، إلا أنها قالت له:**

**- هذا قراري الحر نابع من إرادتي بعد أن فكرت مليًا في الأمر، وأنا لن أتراجع عنه مهما حصل.**

**غادرت مدينة كورسيكا وعادت إلى شقتها في باريس لتكمل حياتها كما اختارتها هي.**

**زارت العمة ماري في شقتها، واطمأنّت على أحوالها، وأخبرتها بما جرى معها مع والديها، فطمأنتها الأخيرة وقالت لها:**

-لا تحزني، فما المسألة سوى مسألة وقت وأمك سوف تتقبلك كما أنت، الأم لا تقسو على أولادها طول العمر، سيأتي يوم وتعود لتتقبل رأيك وتحترم خيارك، إنها الأم التي تتقبل أولادها، حتى لو كان شياطين فتنظر إليهم على أنهم ملائكة، فنحن يا صغيرتي مهما فعلنا ومهما غضب والدانا منا فإنهم لا يحقدون علينا ولا يتخلون عنا في أي وقت نحتاجهما فيه، فما عليك الآن سوى أن تكملي حياتك وأن تدعي كل شيء للزمن ليقوم بتسويته، فهو قادر على تسوية كل الخلافات التي تبدأ كبيرة فتنقلب صغيرة مع مروره.

كانت الأيام تمر بسرعة لكنها كانت بطيئة على مجاهد وجاكلين لأنهما مشتاقان لبعضهما البعض، فالوقت للمشتاق لا يقاس بالثانية؛ بل بأقل جزءٍ منها، فيشعر أن الوقت واقف لا يلقى أي مرور، حتى لو كان طفيفًا.

ما أصعب الانتظار على المولعين، العاشقين الذين ينتظرون لقاء بعضهم البعض.

زارت جاكلين مجاهدًا الذي مضى على سجنه سنتين فاطمأنت على أحواله، فأخبرها حينها أنه أنهى جميع مستويات اللغة الفرنسية التي تخوله الدخول إلى الجامعة، فسرت بما سمعت ووعدته أن تذهب إلى إحدى جامعات باريس لتقدم له طلب للالتحاق بها، فما كان من مجاهد إلّا أن أخبرها أنه يمتلك بعض الشهادات التي تثبت أنه قد أنهى بعض المواد المقررة في كلية الحقوق وسألها إذا ما يمكن تعديل هذه المواد، فأخبرته أنه يتوجب عليها أن تستفسر من الجامعة حول هكذا أمر.

وبعد أن أنهيا حديثهما حول الالتحاق بالجامعة، طلبت منه جاكلين أن يقوم بتقديم طلب إلى السلطات المختصة في السجن ليقوموا بالأفراج عنه بثلثي المدة نظرًا لأنه نفذ أكثر من سنتين من عقوبته، فوعدها بتقديم الطلب..

ودعته جاكلين وعاد كل منهما إلى سجنه، جاكلين إلى منزلها الذي يعد هو الآخر سجنًا دون وجود مجاهد بالقرب منها.

نعم فما هذه الحياة سوى سجن إذا لم نكن مع من نحب.

وبعد بضع أيام وفي لحظة مرور حسن في السجن التقى مجاهد، فبادله التحية، وبعد أن تبادلا الحديث أخبره أن السلطات تدرس طلبه للإفراج عنه فسر بذلك.

وما هي إلا أيام حتى قامت السلطات بالموافقة على طلبه بالإفراج. وفي اليوم المحدد للخروج من السجن ودَّع مجاهد أصدقاءه وحمل أمتعته وغادر.

قرع جرس باب شقة جاكلين وما إن رأته حتى راحت تبكي فرحًا، فقال لها حينها: - ماذا تفعلين بنفسكِ؟ فحتى الزمن يكبر في العمر وأنتِ تبقين كما أنتِ، كما رأيتكِ أول مرة؟

تبسمت وأخذته بيدها وذهبا إلى شقة العمة ماري التي حضنته بقوة وكأنها تحضن ابنها.

مرت الأيام بسرعة، وجاكلين تعمل في مكتب المحامي ريتشارد، ومجاهد يكمل دراسته الجامعية بعد أن تمكن من حجز مقعد له في إحدى الجامعات في باريس.

في هذه الفترة، كانت علاقة جاكلين بوالدها جيدة إلا أن علاقتها بوالدتها كانت شبه منقطعة رغم محاولاتها بتصحيحها، ولكن علاقة مجاهد بعائلته كانت تتحسن يومًا بعد يوم حتى عادت إلى طبيعتها بعد أن أخبر والديه أنه التحق بإحدى الجامعات وأنه يسعى لتحقيق حلمه وحلم والده بأن يصبح محاميًا.

بعد مرور أربع سنوات..

أنهى مجاهد دراسته الحقوقية فبشر والديه بذلك، اللذان أحسوا أن هذا الإنجاز كان عوضهم من الله بعد تغرب ابنهما وبعده عنهما، ولم يكتف بذلك، بل زف إلى والديه خبر قرب ارتباطه بجاكلين، ففرحا بذلك.

وعند تحضيره لحفل تخرجه دعا كل من جاكلين ووالديها والعمة ماري وحسن إلى هذا الحفل.

حضر الجميع باستثناء والدة جاكلين، وقد ارتسمت على وجوههم علامات الفخر بما أنجزه مجاهد، شاركوه فرحته بقلوبٍ صادقة، وابتهجوا لأجله، كأنما كان نصره نصرهم..

وما إن أنتهى الحفل حتى طلب مجاهد يد جاكلين للزواج التي وافقت دون تردد، وأعلمت والدها بالأمر الذي بارك خطوتهما هو الآخر، لكنه طلب منهم أن يقوما بإخبار زوجته بذلك لعل ذلك يخفف الاحتقان بينهما.

لم يمانع مجاهد في الأمر، فانتقلوا جميعًا من باريس إلى منزل والدي جاكلين في كورسيكا، وهناك تم إخبار والدة جاكلين بالأمر التي رغم عدم رضاها عن ذلك إلا أنها قد وافقت بعد أن رأت رغبة وإصرار ابنتها على ذلك- فقالت لها حينها:

- الأم لا تحرم أبناءها مما يحبون، بل تسعى بكل طاقتها لكي ينالوه، حتى وإن كان ذلك على حساب رضاها، أو سعادتها أو حتى صحتها. فهي تعطي دون إنتظار مقابل لما تقدمه...

احتضنت جاكلين والدتها تعبيرًا منها عن شكرها لها واحترامها لرغبتها.

سُر مجاهد وأحسَّ أن الله قد عوضه عن كل المآسي والظروف التي مر بها.

وقال: لا تحزنوا ولا تيأسوا، رغم قسوة هذه الحياة فلعل العوض لم يأتِ بعد، وأن الله إذا فرّج عن عبده أعطاه، وإذا أعطاه أدهشه بعطائه.

**ثم نظر إليها، إلى من تمنى قلبه يومًا أن تكون له بجمالها البريّ الذي يشبه براءة الأطفال، وبعينيها اللامعتين كنجمتين، وحجابها الذي زادها فوق جمالها جمالاً.**

**ابتسم وقال بصوتٍ خافت يحمل كل الحب:**

**"أميرتي" لقد أصبحتِ ملكي للأبد، فماذا أريد بعد ذلك؟**

**********

**{تمت}**

# سجين.

مهما كانت الكلمة محقة، فإنها تعجز أمام سوط القمع، ولا يُجنى منها سوى الموت.

أما الديمقراطية الغربية، فرغم مثاليتها، لا تصلح لتُزرع في أرضٍ لم تُهيأ لها. تطبيقها يفترض أولاً أن يحترم الجميع—أو على الأقل أكثريتهم—مبدأها كأساس للحكم، وإلا كانت مجرد حبر على ورق. كما تفترض ديمقراطية حقيقية أن تحترم الأنظمة إرادة الشعوب، وحقهم في التعبير، لا أن تصادره بالقمع أو التزييف، لكن الأهم أن تكون الشعوب نفسها على قدر كافٍ من الوعي، الثقافة، والانتماء، حتى يُحسنوا الاختيار.

فمن دون ذلك، تصبح الديمقراطية قشرة بلا جوهر، وحرية بلا مضمون.

9 789779 942520

بِبْلُومَانيَا.

ببلومانيا للنشر والتوزيع
BIBLIOMANIA PUBLISHINGS

bibliomania.eg
Google Play
amazon
JARIR BOOKSTORE
www.bibliomaniapublishing.com